توفيق بن خلف الرّفاعي

6 days in FRANCE

ستة أيّام في فرنسا

ستة أيام في فرنسا

توفيق بن خلف الرفاعي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

المقدمة [انطلاقة السباق]

فِي هذِه اللَّحظةِ بدأَ هذَا القلمُ يخطُّ مَا ترَى من كلماتٍ علَى خطوطِ هذِه الأسطرِ، نكون قدْ شرعنَا فِي طريق الإيابِ مِنْ رحلةِ فرنسَا، إذْ يسلكُ بنَا القطارُ السَّريعُ فِي هذَا الصَّباحِ علَى خطِّ السِّككِ الحديديَّةِ آيبينَ مِنْ مدينةِ (ليون) الفرنسيَّةِ إلَى باريسَ العاصمةِ، إلَى دبيِّ - بإذنِ اللَّهِ تعالَى - علَى طيرانِها «طيرانِ الإماراتِ».

يخطُّ القلمُ ما يَخُطُّه وفِي هذِه اللَّحظاتِ بينَ عينيَّ ذكرياتُ الأيَّامِ السِّتَّةِ حَاضرةً، أحببتُ أَنْ أقيِّدها قبلَ أَنْ يخطو عليهَا النِّسيانُ بِممحاتِه، فلَاالذِّكرياتُ تبقَى لِي، ولا العِبَرُ تبقَى لِغيرِي.

يخطُّ هذا القلمُ ما يَخُطُّه وكلِّي أملٌ باللَّهِ - تعالَى - أنْ أتمَّ كتابتَها قبلَ أنْ أنزلَ مطارَ دبيٍّ فيصرفني عنهَا مَا لَا يمكنُ لِي صرفهُ مِنْ أهلٍ وزُوَّارٍ ومواضيعَ واهتماماتٍ وكتاباتٍ، فالقلمُ في سباقٍ معَ هذا القطارِ السَّريعِ على خطِّ العودةِ، والأمرُ

باللَّهِ وحدهُ[1].

يخطُّ هذا القلمُ ما يَخُطُّه وقطارُنا كالصَّاروخِ على وجهِ الأرضِ - فأسترقُ النَّظرَ من الكتابةِ أحياناً لأرَى الأرضَ مِنْ حولِي إلَى مُنْتهَى البصرِ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ بِساطاً أخضرَ، تَفْصلها مِنْ هنَا وهناكَ أنهارٌ تجرِي، وبحيراتٌ تتلألأُ، وأبقارٌ ترتعُ وتتمتَّعُ، وربَّما تغفُو بعدمَا تشبعُ، وهضابٌ مغطَّاةٌ بالخضرةِ، وأحياناً بالأشجارِ السَّامقةِ والغاباتِ المتعانقة، ومن فوق ذلك كلِّه سحابٌ لَا يكادُ يتحرَّك، وشمسٌ تطلُّ مِنْ نوافذِ السِّحابِ أَحْياناً علَى الأرضِ، وأحياناً تزيحهُ وتشرقُ بأكملِها، فإذَا نورُها ينعكسُ كالمرآةِ علَى مسطحاتِ الماءِ الزُّلالِ الرَّقراقِ المتناثرةِ.

نعمْ، إنَّها تلكَ الصُّورُ الَّتي شَاهدناهَا قبلُ فِي بطاقاتِ المعايداتِ والإعلاناتِ، لكنَّها الآنَ حقيقةٌ أمامَ ناظريَّ، وطبيعةٌ حيَّةٌ تتردَّدُ أصواتُ مَخْلوقاتِها فِي أُذنيَّ.

هذِه هِيَ الطَّبيعةُ الَّتي أراهَا، فما انعكاساتُها فِي قلبِي؟!

هذه هِيَ الأرض الَّتي خلقَ اللَّهُ وما عليهَا، فماذَا عنِ البشرِ الَّذين عليهَا؟!

---

(١) أتممت بحمد اللَّه كتابة هذا الكتاب قبل النزول بمطار دبيٍّ بنصف ساعة، وما بقي منه إلا ما زدته في أثناء المراجعات، والحمد للَّه رب العالمين وحده.

هذِه هِيَ الجماداتُ والعَجْماواتُ المسخَّرةُ، فماذَا عَنِ الَّذينَ سخَّر اللَّهُ لهمْ ذلكَ؟!

هؤلاءِ همُ الفرنسيُّونَ، فَمَنْ نحنُ؟!

هذَا ما سينطقُ بهِ القلمُ فِي هذَا الكتابِ بحكاياتٍ قَدْ وقعتْ لنا فِي هذِه الرِّحلةِ، دونَ زيادةٍ أو نقصانٍ، اللَّهمَّ إلَّا ذِكْر صَداهَا فِي قلبِ صاحبِ القلمِ، فَذَلِكَ هُو غايةُ هذَا الكتابِ وهدفُه.

لقدْ كانتْ رحلةً قصيرةً، لكنَّها كانتْ كثيرةَ العِبَرِ، ومديدةَ الأثرِ، إذْ ما يقطعُه الزَّائرُ المعتادُ فِي شهرٍ أو صيفٍ بأكملِه قطعناهُ نحنُ فِي أُسْبوعٍ!

فالنَّومُ قليلٌ قليلٌ، اللَّهمَّ إلَّا ساعاتٍ معدوداتٍ فِي اليومِ واللَّيلةِ، كثيرٌ منهَا فِي القطارِ أو فِي السَّيَّارةِ، ومحطَّاتِ القِطاراتِ، وسيَّاراتُ الأجرةِ هِيَ سكنُنا الثَّاني، أمَّا الدُّكتور/ لطفي - حفظهُ اللَّهُ وسيارتَه وبيتَه - فهُو حِصْننا ومَأْوانَا، وقلبُنا النَّابضُ، ومَطْعمُنا الشَّهيُّ... فِي هذِه البلادِ الشَّاسعةِ علَى طولِها وعَرْضِها.

نَعَمْ، إنَّها رحلةُ علاجٍ، لكنَّها رحلاتٌ فِي رحلةٍ، وكأنَّها سياحةُ نحلةٍ، إذْ خرجتْ فِي الصَّباحِ الباكرِ معَ الطَّيرِ الطَّائرِ، مهجرُها الحقولُ، ومحطَّاتُها الأزهارُ، وغايتُها الغذاءُ والدَّواءُ الَّذي جعلَ اللَّهُ فيهِ للنَّاسِ الشِّفاءَ.

إنَّني أحمدُ اللَّهَ - تعالَى - علَى هذِه الرِّحلةِ الَّتي ما كنتُ

أحلمُ بِها، كَما لمْ أكنْ أتمنَّاها أبداً.

وكانَ كلَّما حضَّني علَى زيارةِ فرنسَا وزيارتِه الدُّكتور/ لطفي - حفظهُ اللَّهُ - كنتُ أُسوِّفُ مُظْهراً لهُ إمكانيَّة تحقُّق الأملِ بذلكَ فيما بعدُ، لكنَّ قلبِي كانَ يقولُ: «لا أَراني اللَّهُ إيَّاهَا، ولا زرتُها حياتِي، وأموتُ ولَا أرَى بلداً غير مسلم حتَّى مماتِي»!

لكنَّ اللَّهَ غالبٌ علَى أمرِه، فقدْ أُصِيب إصبُعي بجرحٍ، واسودَّ لونُه، وأنا صاحبُ مرضِ السُّكَّريِّ، حتَّى بدَا كأنَّه ليس ببعيدٍ علَى «الغرغرينا» المُفْضية إلى تقطيعِ الإنسانِ بعد قطعِ إِصْبعِه، ومعَ حضِّ أخي/ أبُو راشدٍ «خلفان المزروعي» - حفظهُ اللَّهُ - لِي علَى ذلكَ وعَرْض أخي فِي اللَّه/ محمد الصلف - حفظهُ اللَّهُ -، مُصاحبتِي فِي هذِه الرِّحلةِ، وحاجةِ أخِي الشَّقيق/ عبدالسَّلام - حفظهُ اللَّهُ - للمُراجعةِ، ثمَّ جاءتْ الاستخارةُ الشَّرعيَّةُ، إذ وجدتُ نفسِي كأنَّني مسلوبُ الإرادةِ نحوَ السَّفرِ إلَى فَرنْسا، وما هِيَ إلا أربعٌ وعشرونَ ساعةً وإذَا بالتَّأشيرةِ قَدْ أُكملت للسَّفرِ إلَى جميعِ بلادِ أُورُوبَّا، معَ أنَّ المعتاد أنَّ التَّأشيرةَ لَنْ تخرجَ إلَّا بعدَ أُسْبوعينِ مِنْ تَقْديمِها!

ومَا جاءتْ ليلةُ الأحدِ إلَّا وقد حطَّت طائرتُنا فِي مطارِ «شارل ديغول» فِي باريس!

من مطار دبي إلى مطار شارل ديغول:

مَا بين المطارينِ مسافةٌ طويلةٌ قدرهُا ستُّ ساعاتٍ ونصفُ السَّاعةِ بالطَّائرةِ، ومَا بين المطارينِ فارقٌ هائلٌ، فكمْ يُبالغُ هؤلاءِ المسافرونَ من بنِي قومِي بالتَّهويلِ عندَ وصفِ تلكَ البلادِ مستغلِّينَ غفلةَ النَّاسِ وجهلَهم، أو مُسَوِّغين لِسياحتِهم وكثرةِ أسفارهِم حينَ يَصفونَها وكأنَّها بلادُ الأحلامِ!

لكنَّني للَّحظةِ الأولَى أدركتُ أنَّنا نفوقُهم حتَّى فِي بعضِ جوانبِ المادَّةِ والتَّطوُّرِ.

فَمَنْ رَأى مطارَ دبيٍّ وما فيهِ مِنَ الخدمةِ والأنظمةِ، والنَّظافةِ والجمالِ، ثمَّ دخلَ مطارَ شارل ديغول ورَأى أبوابَ ذلكَ المطار الَّتي لَا نستخدمُها نحنُ فِي معارضِ السَّيَّاراتِ فضلاً عن مطارِ دبيٍّ، ورَأى جدرانَ المطارِ البائدةَ، وفوضَى الدُّخولِ إلى مواقعِ ختمِ الجوازاتِ، وصعوبةَ الوصولِ إلى مُبْتغاكَ خارجَ المطارِ لقلَّةِ الإرشاداتِ والعلاماتِ وعدمِ

وُضُوحِها، وصعوبةَ التَّعاملِ معَ سيَّاراتِ الأجرةِ، وصعوبةَ الحصولِ عليهَا، واسترجعَ الأمرَ فِي دبيٍّ وجدَ أنَّه علَى النَّقيضِ من ذلكَ تماماً، وعلمَ أنَّ القفزة الَّتي قفزتها دبيٌّ قد جعلتْ من حقِّها أن تزهُو حتَّى علَى باريسَ، معَ العلمِ أنَّ دُبَيّاً ليستْ بلدةً بترولِيَّةً!

فمَا بالُ بعضِ البلادِ العربيَّةِ الغنيَّةِ بالبترولِ قابعةً فِي نُفَاياتِ مطارِ شارل ديغول؟!

نعمْ، إنَّهم يأخذونَ عليها الانْفِتاحَ بكلِّ صُنوفِه، ونحنُ نأخذُ ذلكَ، ولكنْ أَصْلِحُوا ذلكَ عندكُم، وخذُوا بحسناتِها، وأَضيفُوا لذلكَ مَا عندكُمْ مِنْ حسناتٍ، فذلكَ خيرٌ لكمْ مِنْ أن تقبعُوا فِي بئرِ الحسدِ المظلمِ.

سفرٌ بلا توقُّفٍ:

مَا إِنْ نزلنَا المطارَ وركبنَا القطارَ السَّريعَ حتَّى استَقبلنا أخُونا العالمُ فِي القلبِ الدكتور/ لطفي، بسيارتِه فِي محطَّةِ ليون لركَّابِ القطَّارِ، وبعدَ عشاءٍ شهيٍّ قد أُعِدَّ لنا من قِبَلِ أهلِه - حفظهمُ اللَّهُ - بِتْنا عندهُ مِنْ شدَّة التَّعبِ، وما استطعنا الذَّهاب إلى شقَّتنا فِي هذِه اللَّيلةِ.

وفِي صباحِ الإثنينِ ابتدأَ المشوارُ السَّريعُ معَ الطِّبِّ الفرنسيِّ الَّذي احتكرَ المركزَ الأوَّل علَى مستوى العالمِ فِي السَّنواتِ الأخيرةِ، بينمَا أخُونا الدكتور/ لطفي، يتربَّع علَى رأسِ هرمِ

الـ [J.M.A][1] وهيَ أكبرُ لجنةٍ علميَّةٍ فِي فرنسَا، والَّتي تضمُّ نخبةً من أعلم علماءِ فرنسَا ومُبْدعيهَا فِي مختلفِ التَّخصُّصاتِ الطِّبيَّةِ؛ إذ يَزيدُ عددُ أَسَاتذِتها علَى الخمسينَ أُسْتاذاً فِي مختلفِ أرجاءِ فَرْنسا ومُسْتشفياتِها، ولا أعرفُ مجموعةً طبيَّةً فِي العالمِ بهذَا العددِ من الأساتذةِ، وبهذا الجمعِ للتَّخصُّصاتِ الطِّبيَّةِ المتنوِّعةِ فِي لجنةٍ واحدةٍ.

وكَمْ حَمِدتُ اللَّهَ أَنْ ساقنَا إلى فرنسَا سَوْقاً، ونسألُه أنْ يَسُوقنَا إلى الجنَّةِ فِي طليعةِ مَنْ قالَ اللَّهُ فيهِمْ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

فبينمَا كانتِ المواعيدُ المعتادةُ لِلفِرنسيِّينَ وغيرِهم يطولُ انتظارُها إلَى الأربعةِ أشهرٍ عندَ الأساتذةِ الكبارِ، فإنَّ الدُّكتور/ لطفي، كانَ لا يكلِّفهُ ذلكَ إلا الاتِّصالُ، وإذَا عجزَ عَنْ أستاذٍ فِي تخصُّصهِ لانشغالٍ مسبقٍ أو نحوِه تحوَّل إلى آخر، وكلُّ واحدٍ مِنْ هؤلاءِ عنده ما ليسَ عندَ الآخرِ فِي العلمِ، فنحنُ ثلاثةٌ، وكلُّ واحدٍ منَّا عندهُ ما لا يقلُّ عن ثلاثةِ طلباتٍ طبِّيَّةٍ، كلُّ ذلكَ فِي أيَّامٍ أربعةٍ غير يومي

(١) والآن تحول الدكتور إلى الجزائر ومعه بعض من أساتذة هذه اللجنة.

الذَّهابِ والإيابِ، والمرءُ يشعرُ - حقيقةً - أنَّ اللَّهَ قَدْ باركَ لهذا الرَّجلِ فِي وقتهِ وإنتاجهِ، فالهاتفُ لا يكادُ يفارقُ أُذُنه، والحركةُ لا تفارقُ جوارحَه، والمنافعُ العلميَّةُ لا تفارقُ لِسانَه، والتَّوقُّفُ لا تعرفه سيارتُه، إلَّا بنزولٍ من موعدٍ إلى آخرَ، أو سكنٍ فِي السَّكنِ، وليسَ النَّومُ أو الطَّعامُ أو الرَّاحةُ مِنْ أولويَّاتِه.

فعلى الرغم من كلِّ ما عليهِ مِنْ تكاليفَ، وكلِّ ما يحملُه مِنْ طموحاتٍ عظيمةٍ، غايتُها تحويلُ هذِه الثَّروةِ العلميَّةِ الهائلةِ إِلَى بلادِ الإسلامِ، وإِلَى دبيَّ تحديداً، ثمَّ الجزائرِ، وعلى رُغْمِ كلِّ ما تعرَّض له من طعناتٍ فِي ظهرِه، أو تخلٍّ عنهُ فِي اللَّحظَاتِ الأخيرةِ من أخوةٍ له فِي الإسلامِ، وعَلى رَغْمِ ما تعرَّض لهُ من خيبةِ أملٍ وإحراجاتٍ فِي فرنسا بسببِ هؤلاءِ التُّجَّارِ والمسؤولينَ المسلمينَ الَّذين لا يُقدِّرونَ للموعدِ قَدَاستَه، ولَا للكلمةِ قيمتَها، بينمَا أساسُ تعاملِ الدُّكتور مع هذِه النُّخبةِ مِنَ العلماءِ هِيَ الكلمةُ، إلَّا أنَّني - واللَّهِ - أعجبُ مِنْ هِمَّةِ هذَا الرَّجلِ الَّتي لا تَزيدُها تلكَ الحوادثُ الأليمةُ إلَّا توقُّداً ولهيباً.

وطريقةُ عملِ الدُّكتور معَ هؤلاءِ العلماءِ الكبارِ هُو أنَّه نجحَ في سَلْكهم فِي سلكٍ واحدٍ. ذلكَ السِّلك هو هذِه اللَّجنةُ الَّتي عملَ لهَا طويلاً، وتابعَها كثيراً حتَّى صدرَ بها قرارٌ رسميٌّ من الحكومةِ الفرنسيَّةِ، وقدْ نُشِرَ هذَا القرارُ فِي الجريدةِ الرَّسميَّةِ عندهم، حتَّى

قالَ لهُ يوماً وزيرُ الصِّحَّةِ: «إنَّك عملتَ مَا لمْ تستطع الحكومةُ الفرنسيَّةُ عملَه».

ولولَا معرفةُ هؤلاءِ الأطبَّاءِ العلماءِ الفرنسيِّينَ بقيمةِ الدُّكتور لطفي، العلميَّةِ، ولولَا اكتشافاتُه فِي علمِ القلبِ لمَا التفتُوا إليهِ، وَلا التفُّوا حولهُ، ثمَّ إنَّ النِّظامَ الفرنسيَّ يعطي هؤلاءِ العلماءَ خاصيَّةَ القدرةِ علَى أن يجمعُوا ما بينَ العملِ كقطاعٍ حكوميٍّ، والعملِ كقطاعٍ خاصٍّ، فالأستاذُ منهم يعملُ فِي المستشفياتِ الحكوميَّةِ، إلَّا أنَّ الحكومةَ الفرنسيَّة تعطيه منحةً بطريقةٍ خاصَّةٍ، بحيث يكون من حقِّ ذلكَ الأستاذ إدخالُ مَنْ يشاءُ مِنَ المرضَى، ومتَى يشاءُ، وبالسِّعر الَّذي يشاءُ، ويقتسمُ هو وطاقمُه المدخولَ، وذلك لتَكْسبَ الحكومةُ هؤلاءِ العلماءَ وتَصْرِفَهُمْ عن التَّفكيرِ فِي تركِ السِّلكِ الحكوميِّ إلى سلكِ العملِ الخاصِّ علَى عكسِ ما هو معمولٌ به فِي بلادِنا وللأسف!

لقدِ ابتدأتِ الفحوصاتُ الفرنسيَّةُ بي، وبالسُّكَّرِ تحديداً، إذْ هُو الأخطرُ بالنِّسبةِ لِي، وعلامةُ الجرحِ فِي إصبعِي نذيرُ خطرٍ ينادِي أنْ عجِّلوا فِي العلاجِ قبلَ حلولِ ما لَا تُحْمدُ عُقْباهُ، نسألُ اللَّهَ - تعالَى - العافيةَ، وفِي أثناءِ ذلكَ كان كلُّ واحدٍ من الصَّحبِ يَمضي فِي فحوصاتِه.

ويَا لهَا مِنْ عنايةٍ فاقتْ ما سمعناهُ مِنْ وصفٍ ليسَ بِي

خاصَّةً، بل بكلِّ مريضٍ، إذْ هوَ نظامٌ يسري علَى الجميعِ، ومعنَا بعدَ اللَّهِ - تعالَى - ثقلُ اللَّجنةِ الَّتي هِيَ مراقِبةٌ حتَّى علَى الأستاذِ نفسِه، لوْ حصلَ أيُّ خطإٍ طبِّيٍّ - لا قدَّر اللَّهُ - أو تقصيرٍ فِي استخدامِ آخرِ الاكتشافاتِ العلميَّةِ.

فالنِّظامُ فِي تلكَ المستشفياتِ لا يقتصرُ علَى فحصِ موضعِ المرضِ ومظهرِه، لَا، بلْ لابدَّ مِنْ فحصِ جميعِ أجهزةِ الإنسانِ ذاتَ الصِّلَة فحصاً طبِّيّاً من خلالِ المقابلةِ الشَّخصيَّةِ والتَّحليلاتِ الدَّمويَّةِ، والنَّظرِ فِي التَّطوُّراتِ المستقبليَّةِ، فضلاً عن تشخيصِ الحالةِ الآنيَّةِ تشخيصاً فِي غايةِ الدِّقَّةِ.

وبعدمَا أتممتُ كلَّ العلاجاتِ، وقابلنِي كلُّ مَنْ أَحتْاجُ إلى مقابلتِه من أساتذةٍ متخصِّصينَ ومجاميعِ الممرِّضينَ، وقد بقيتُ عندهُمْ نحوَ العشرِ ساعاتٍ أدركَ الأطبَّاءُ أخيراً أنَّ ما هو أخطرُ من الإصبعِ قَدْ أصابنِي، فثمَّة مؤشراتٌ تدلُّ علَى إصابةِ القلبِ، وذلكَ بعدَ التَّخطيطِ الجهديِّ الذي عُمل لِي.

فخرجتُ مِنْ عندهم بعدما انتهيتُ، وقد أعدَّ لي الدُّكتور/ لطفي، موعداً جديداً طارئاً، فتوجَّهتُ فِي اليوم التَّالي من ليونَ إلَى باريسَ، ومنهَا إلَى مدينةِ «كا» حيثُ المستشفَى الجامعيُّ، إذِ الحجزُ كانَ معَ العَالِمِ المرجعيِّ فِي تخصُّصهِ البروفسور «أومو»، والَّذي يُعْتبرُ مِنْ أعلمِ النَّاسِ فِي القسطرةِ تحديداً، ومن القلائلِ الَّذينَ يعملونَ خراطَةَ الشَّرايينِ، ومؤلفاته مرجعيَّةٌ

للأطبَّاء فِي هذَا الجانبِ، وهُو الذي طوَّر اختراعِ القسطرةِ مِنَ اليدِ، ومؤلفاته في هذا مرجعية تدرس في الجامعات العالمية.

وعندمَا دخلنَا إلَى القسمِ الخاصِّ بالقلبِ استقبلونَا بالعباراتِ المُرحِّبةِ المُقرِّبة دونَ تكلُّفٍ، وكانَ ذلكَ الاستقبالُ هوَ جزءٌ مهمٌّ من علاجِ القلبِ، وفوقَ ذلكَ العنايةُ بالمريضِ منذُ لحظةِ استلامِه، حتَّى لكأنَّ المريضَ من لحظةِ وصولِه يشعرُ أنَّه فِي خليَّةٍ «أمنيَّةٍ»، ولكنَّها خليَّةٌ أمنيَّةٌ أمينةٌ بحقٍّ، طبِّيَّةٌ رحيمةٌ منظمةٌ، فكلُّ مجموعةٍ تتعاملُ معكَ عارفة بتاريخِك المرضيِّ إلَى لحظةِ اللِّقاءِ، وكلُّ خليَّةٍ لها تحليلاتُها الَّتي لا تُسلِّم لكلِّ التَّحليلاتِ الَّتي سبقتها، لكنَّها تهتمُّ بها غايةَ الاهتمامِ.

كنتُ وأخي عبد السَّلام فِي غرفةِ الانتظارِ للدُّخولِ لِلْقَسطرةِ، وكنتُ أقولُ لهُ: تأمَّل تصرُّفاتِهم وماذَا يصنعونَ، إنَّهم يَتضاحَكونَ فِي أثناءِ أداءِ المَهمَّاتِ، فبينمَا كانُوا يُمارسونَ حلاقةَ يدِي وتطهيرَها، وإعدادَ كلِّ شيءٍ كانوا يتباسطونَ بأدبٍ، ويتمازحونَ بغيرِ إثارةٍ ولا إزعاجٍ، إنَّهم يُشْعرونك بسهولةِ المَهمَّة دونَ أن ينطقُوا بذلك، إنَّهم يقولونَ بلسانِ الحالِ: لا تبتئسْ، فالمَهمَّةُ أسهلُ مِمَّا تتوقَّع، أرخِ أعصابَك، وارتخِ، فنحنُ مجرِّبونَ، وهذا أمرٌ عاديٌّ.

واستمرُّوا علَى هذَا الحالِ حتَّى فِي أحرجِ اللَّحظاتِ، وجاءَ الطَّبيبُ: «أكرم»، الفرنسيُّ الجنسيَّة، المغربيُّ الأب،

الفلسطينيُّ الأمِّ، وهو مساعدُ العالمِ «أومو»، وذكرَ لنَا ماذَا سيصنعُ الأستاذُ، ثمَّ بيَّن مخاطرَ العمليَّةِ، وأنَّه ربَّما تُصابُ (الأورطة) فيكونُ فتحُ الصَّدرِ فوراً لإدراكِ الحياةِ إنْ تمكَّنوا من ذلكَ، ولكنَّها نادرةُ الحدوثِ جدّاً.

ثمَّ جاءَ ذلكَ العَالِمُ «أومو»، وسلَّم، وقالَ لنَا ماذَا سيصنعُ علَى وجهِ الدِّقَّةِ، وسألهُ أخِي «عبدُ السَّلام»، ثانيةً إن كانَ فيها مخاطرُ، فقالَ: وهل فِي قيادةِ السَّيَّارة مخاطرُ؟ قالَ: نَعَمْ. قال: هِيَ مثلُها، ولابدَّ لكَ مِنْ رُكُوبها، فلا تقلقْ، فالسَّلامةُ طريقُك، بإذنِ اللَّهِ.

وأُخِذْنا إلَى غرفةِ الإعدادِ، ثمَّ أُدْخِلْتُ أَوَّلاً إلَى غرفةِ العمليَّاتِ، وما هِيَ إلَّا خمسُ دقائقَ، نَعَمْ، خمسُ دقائقَ أو تَزيدُ قليلًا حتَّى أتمَّ كلَّ شيءٍ، وأنا بكاملِ وَعْيي وعَقْلي، ورأيتُ بعينيَّ علَى شاشةِ البثِّ كيفَ دخلَ الطَّبيبُ بخيطِ قسطرتِه مِنْ فتحةٍ بِسَعَةِ مليمترٍ واحدٍ فقط مِنْ سَاعِدِي إلَى شَرَاييني، ثمَّ إلَى قلبِي، وشعرتُ بدغدغةِ خيوطِه خفيفةٍ فِي داخلِ شَراييني صَدْري، وبعدهَا سحبَ عُدَّته، وقالَ لِي: بالبركةِ، فأنتَ سليمٌ، لا توجدُ مخاطرُ، إنَّها شعيراتٌ سهلةٌ لابدَّ منها لصاحبِ السُّكَّريِّ، ونظَّفنا كلَّ شيءٍ، وعِشْ حياتَك مرتاحاً مُطمئنّاً، والحمدُ للَّهِ ربِّ العالمينَ، فقدْ شعرتُ - حقيقةً - عندها كأنَّها الحياةُ عادتْ لِي مِنْ جديدٍ.

شهوة بلا إحساس

منظرٌ تكرَّر أمامَ أعينِنا كلَّما نزلنا محطَّة قطارٍ، أو أَردنَا الصُّعودَ إلَى قطارٍ آخرَ، إنَّه مراسمُ الوداعِ والاستقبالِ الحارَّةِ الَّتي اعتادهَا الفرنسيُّونَ والفرنسيَّاتُ، إذ كَانَ العناقُ والتَّشابكُ الكاملُ.

وتكرَّر هذَا المنظرُ أمامَ نَاظريْنَا وناظرِ المارَّةِ فِي الأسواقِ وغيرِ الأسواقِ، أمَّا علَى مقاعدِ القطارِ فإنَّ الأمرَ أصعبُ من ذلكَ وأَمَرُّ.

نَعَمْ، لمْ نشاهدْ - وللَّهِ الحمدُ - ما نشاهدُه مِنْ نَزْو البهائمِ بعضِها علَى بعضٍ، إنَّما هو الضَّمُّ الطَّويلُ والعناقُ المديدُ، ويفترقان، وكأنَّ شيئاً لم يكنْ.

فقلتُ لصاحبِي: سبحانَ اللَّهِ! ما هذِه الأمَّةُ الغربيَّةُ الغريبةُ، لقدْ فقدتِ الإحساسَ بكلِّ شيءٍ حتَّى بأخصِّ خصائصِهم الانحرافيَّةِ، قد فقدتْ إحساسَها حتَّى بشهوتِها!

ترَى المُتعانِقَين يشتبكانِ فِي كلِّ شيءٍ، ويتحرَّك فيهما كلُّ شيءٍ، نَعَمْ، كلُّ شيءٍ، مِنْ أعلاهما إلَى أَرْجلِهما، إلَّا شيئاً واحداً ، ألَا وهو الشَّهوةُ وأعضاؤها!

إنَّه الموتُ للإحساس الشَّهوانيِّ، إنَّه التَّشبُّعُ والملل، إنَّه العذابُ النَّفسيُّ، إذِ الطَّعامُ مبذولٌ بأطيبِ الطَّيِّباتِ، والجوعُ شديدٌ لكنَّه لا يستطيعُ الأكلَ، أو لا يستطيعُ المَضْغَ ولا البلعَ! كأنَّه التَّيسُ يرَى المِعْزَى رافعةً الذَّنَبَ عن عَوْرتِها، فيغدُو ويروحُ معهَا وينامُ ويستيقظُ، فلَا تثيرُه رؤيةُ عَوْرتِها، ولَا تحرِّكُ له شهوتَه إلَّا عندَ موسمِ اللِّقاح، فإنَّ القومَ كذلكَ، لا قيمةَ للقُبْلةِ، ولا للأرجلِ، ولا للحركةِ، ولا الفركةِ، كيفَ وَقَدْ ذهبَ الإحساسُ من الأساسِ؟!

لقدْ كنَّا فِي مدينتِنا نتقزَّزُ من بعضِ الإعلاناتِ النِّسائيَّةِ، لكنَّها علَى قباحتِها ووقاحتِها لا تمثِّلُ شيئاً عندَ هؤلاءِ!

إنَّك حينمَا ترَى الإنسانيَّةَ قد وصلتْ إلَى هذَا التَّسافلِ الشَّهوانيِّ تصغرُ فِي عينِك إلَى درجةٍ أدنى، وأدنَى من درجةِ تلكَ المِعْزَى وَتَيْسِها، فإذَا أَثارتْكَ أيُّها المسلمُ عورةُ المِعْزَى أو عورةُ القِرْدةِ المقشورةِ أثارتْكَ عوراتُ هؤلاءِ العارياتِ.

هذا الشُّعورُ الَّذي شعرناهُ وجدناهُ عندَ المسلمينَ المُلْتزمينَ المُغْتربينَ هُنا فِي فرنسَا كذلكَ، والحمدُ للَّهِ ربِّ العالمينَ، إذِ القذارةُ تعلُو نساءَ القومِ؛ معنىً ومبنىً.

أمَّا قذارةُ المعنَى فهيَ كمَا ذكرنَا، وأمَّا قذارةُ المبنَى فهي هذِه الأبدانُ الحمراءُ الشَّقراءُ الحامضةُ الرَّائحةِ، النَّجسةُ المتنجِّسةُ ببقايَا فضلاتِ القاذوراتِ الَّتي لا تُطهِّرُ نفسَها من غائطٍ أو من بولٍ، أو من عرقٍ متقادم لا تقاومهُ الرَّوائحُ الباريسيَّةُ الفوَّاحةُ إذَا احترَّ الجوُّ قلَيلاً، وهبَّتْ علَى مَجَاميعِهم فِي الشَّارعِ ريحٌ خفيفةٌ تتَّجهُ نَحْوكَ.

فللَّهِ درُّ المسلمينَ والمسلماتِ، والحمدُ لهُ علَى نعمةِ الإسلامِ، والحمدُ للَّهِ الَّذي لولاهُ ما اهتدينَا ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

بيوت بلا أسوار :

عانَى الدُّكتور/ لطفي - حفظهُ اللَّهُ - كثيراً حين قدَّم تصميمَ بيتِه الجديدِ، وأرادَ استخراجَ رخصةٍ لبنائِه فِي مدينةِ «أونجي»؛ إذْ كانَ مطلبُه الَّذي اصطدمَ بالقانونِ الفرنسيِّ هو أنَّه قدَّم تصميماً لبيتِه، وفيهِ سورٌ خارجيٌّ للبيتِ ليسترَ حركةَ الأهلِ داخلَ البيتِ، فما سُمِح لهُ على رُغْم محاولاتِه المتعدِّدةِ!

لقدْ توقَّفنا يوماً مِنَ الأيَّام بعد غروبِ الشَّمسِ فِي حيٍّ مِنَ الأحياءِ، ونزلَ الدُّكتور ليشتريَ لنا لحمَ الدِّيكِ الرُّوميِّ الطَّازجِ، إذَا ببنتٍ تخرجُ بأبهَى زِينتِها من البيتِ المجاورِ لبابِ سَيَّارتِنا، بينمَا قَدْ سَكنتِ الرِّجْلُ وهدأتِ الحركةُ جدّاً وذلكَ كعادةِ الحياةِ عندهُمْ إذا جنَّ اللَّيلُ، فقلتُ للإخوةِ: انظرُوا، خرجتِ البنتُ وحيدةً، وبعدَ دقيقةٍ واحدةٍ دخلَ شابٌّ نفسَ البيتِ، فقلتُ: لعلَّه أخُوها - هذَا علَى حُسْنِ الظَّنِّ - هكذا هِيَ الحياةُ عندهُمْ، فالأخُ يرجعُ الآن، والبنتُ

تخرجُ الآنَ، ولَا حسيبَ ولَا رقيبَ ولا واليَ، وبعدَ لحظاتٍ دخلَ رجلٌ كبيرٌ فِي السِّنِّ وكأنَّه ربُّ الأسرةِ فِي بيتٍ بلا أسرةٍ، وهكذَا هُو الشَّتاتُ الأُسْريُّ.

فمِنَ النَّقيصةِ فِي حقِّ البنتِ أن تبلغَ الثَّامنةَ عشرةَ مِنْ عُمُرهَا ولم تُهْتكْ!

هذِه هِيَ الحقيقةُ عندهُم، وليسَ لذلكَ مِنْ تفسيرٍ إلَّا أنَّها امرأةٌ ناقصةٌ وغير جَذَّابةٍ، ولولَا ذلكَ لنجحتْ فِي اجتذابِ شابٍّ يهتكُ عِفَّتها قبلَ الزَّواجِ!

مِنَ المستحيلِ أن تَفْصلَ مدارسَ الذُّكورِ عَنِ الإناثِ، بَلْ مِنَ الشُّذوذِ أن تفصلَ مقاعدَ الأولادِ عَنِ البناتِ فِي الفصلِ الدِّراسيِّ الواحدِ!

مِنَ العيبِ كلَّ العيبِ أَنْ يلتقيَ الرَّجلُ وزوجتُه برجلٍ آخرَ وزوجتِه، ثمَّ لا يُقبِّلُ ذاكَ الرَّجلُ زوجةَ هذَا أمامَه، وهُو فِي غاية السُّرورِ، والعكسُ، فإنْ لمْ يفعلْ لربَّما جرَّ ذلكَ إلَى مشكلةٍ كبيرةٍ!

جمادٌ، كلُّ شيءٍ هنا جمادٌ؛ إذ كلُّ شيءٍ هنا بلا روحٍ.

المادَّة هِيَ الحياةُ، والحياةُ هِيَ المادَّةُ، الجمالُ بلا حياةٍ، فالحياةُ حقيقةٌ بلا جمالٍ حقيقيٍّ! إنَّها خُضرةٌ ووردٌ وبلابلُ وحياةٌ، ومناظرُ خلَّابةٌ، وغيومٌ لا تكادُ تفارقُ البساتينَ، كأنَّها صورٌ علَى لوحةٍ، ومِنْ حولِ اللَّوحة الحياةُ، أمَّا

اللَّوحةُ فإنَّها جامدةٌ، فتبقى لوحةً، وكلُّ ما عليها لَوْحٌ.

رُبَّما تحاولُ أن تمتِّع نَاظِريك، فلا يتجاوزُ المتاعُ إلَى رُوحِكَ، فالرُّوحُ تأبَى هذَا الوفاقَ والمصالحةَ، بلْ تأبَى التَّعارفَ فضلًا عن التَّآلفِ... إنَّه التَّناكرُ!

وإلَّا فأينَ الرُّوحُ مِنَ المادَّةِ، إنَّها حينَ أَذِن اللَّهُ لهَا فدخلتِ الطِّينَ نشأَ بأمرِ اللَّهِ خلقاً آخرَ، فمَنْ يأذنُ للرُّوح بالدُّخولِ إلَى اللَّوحةِ؟!

حتَّى روحانيَّتهم المزعومةُ، إنَّها مجرَّد تمثيلٍ وتماثيلَ، وإلَّا فهي عبوديَّةٌ تمثيليَّةٌ كاذبةٌ للتَّماثيلِ من صلبانٍ وأجراسٍ وترانيمَ، إنَّها عذابُ الرُّوحِ، وليسَ روحانيَّةَ الرُّوحِ، ذلكَ أنَّها قهرٌ للرُّوحِ لتعبدَ غير ربِّها - سبحانَهُ.

لَا، لنْ تستطيبَ رُوحك أيُّها المسلمُ الدُّخولَ فِي هذَا الجمالِ، فهي الوحشةُ، ويومَ أن تشعر رُوحك أنَّها بدأتْ تألفُ تلكَ اللَّوحةَ فاعلمْ أنَّها صُحْبةٌ كصحبةِ الذِّئب للحَمَلِ، فلا بدَّ من الافتراسِ، ولابدَّ من فريسةٍ، ولا غرابةَ بعدَ هذَا التَّحليلِ أنْ تجدَ من المسلمينَ من تَسْتطيبُ رُوحه السِّياحةَ فِي رُبُوعِ بلادِ الكافرينَ وتَأْلفها حتَّى لا تكادَ تُفارقُها، أبهذَا تسيحُ الرُّوح؟! أَعَنْ هؤلاءِ قالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢] إنَّها ترابٌ يحاولُ البعضُ أن يسقيهُ رُوحاً.

ولذَا يقولُ المصطفَى ﷺ: «إنَّ سياحةَ أُمَّتي الجهادُ فِي سبيلِ اللَّهِ»(١).

ويقولُ ﷺ: «مَا لي وما للدُّنيا، ما أنا فِي الدُّنيا إلَّا كراكبٍ استظلَّ تحتَ شجرةٍ، ثمَّ راحَ وتركَها»(٢).

بينَما بعضُ قومِنا يألفونَ الشَّجرةَ، ويَسْعونَ للاستظلالِ بظلِّها، ولكأنَّهم يَسْعون لتحقيقِ ما يضادُّ منهجَ رسولِ اللَّهِ ﷺ، فهو يروحُ عنها ويتركُها، وهُمْ يَرُوحونَ إليهَا، ويتركونَ بلادَ الإسلامِ والمساجدَ.

أترى الرُّوحَ هِيَ الَّتي سَاقَتْهم؟ أم النَّفس الأَمَّارةُ الَّتي حَمَلتْهم؟

هو ﷺ يروحُ للدَّارِ الآخرةِ، وهُمْ يروحونَ بقلوبِهم ليُلْقوها فِي فتنِ الدُّنيا ليُشْرِبوا فِي قُلُوبهم شرابَ أبناءِ السَّامريِّ، ويُعمِّدوا أرواحهم بشرابِ بَنِي شَاؤُولَ!

هُنا - أيُّها المسلمونَ - فِي بِلادِكم متاعُ أَرْواحكمْ، وإنِ اشتدَّ حرُّ بِلادِنا، فالحَرُّ علَى البدنِ لا علَى الرُّوحِ، والرُّطوبةُ تنزفُ مِنْ مسامِّ البدنِ، ولَا تنزفُ ذرَّةً مِنَ الرُّوحِ.

---

(١) رواه أبو داود (٢٤٨٦) وحسنه الألباني.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٧٧)، وصححه الألباني.

هُنَا حيثُ تطيرُ الرُّوحُ أُنساً وهِيَ تسمعُ: «اللَّهُ أكبرُ» خمس مرَّاتٍ...، هنا حيثُ المناظرُ الطَّاهرةُ...، هُنا حيثُ الجيرةُ المسلمةُ...، هنَا حيثُ الطَّهارة معنىً ومبنىً.

ولكنْ هنا الصَّبرُ، وَقَدْ قالَ الإمامُ أبُو سُليمانَ الدَّارانيُّ عن الدُّنيا: «جُوعٌ قليلٌ، وعُرْيٌ قليلٌ، وفَقْرٌ قليلٌ، وصَبْرٌ قليلٌ، وَقَدْ انقضتْ عنك أيَّام الدُّنيا»[1].

وقالَ الإمامُ أحمدُ: «إذا ذكرتُ الدُّنيا هانَ عليَّ كلُّ شيءٍ من أمرِ الدُّنيا، وإنَّما هُو طعامٌ طعامٌ دونَ طعـام، ولباسٌ دُون لباسٍ، وإنَّها أيَّامٌ قلائلُ، ما أَعْدِلُ بالفقرِ شيئاً»[2].

(١) «البداية والنهاية» (١٠ / ٢٥٦).

(٢) «تاريخ الإسلام» (١ / ١٨٦٦).

بَدَّلوا نعمةَ اللَّه كفراً:

ينظرُ النَّاظرُ فِي نِعَم تلكَ البلادِ فيرَى كيفَ استعملَ أولئكَ القومُ نِعَمَ اللَّهِ فيمَا يُغْضبهُ، وتقرَّبوا إليهِ بمعصيتهِ.

فهذِه عروشٌ ممتدَّةٌ إلَى منتهَى البصرِ فِي كلِّ مكانٍ من العنبِ اللَّذيذِ قد خُصِّصتْ لصناعةِ الخمورِ الفرنسيَّةِ.

وهذِه الأبدانُ الطَّويلةُ النِّسائيَّةُ الفارعةُ قدْ عُرِضَتْ فِي كلِّ مكانٍ لِزِنَى النَّظرِ أو زِنَى الفرجِ بينمَا أبدانُ الرِّجالِ فِي العادةِ مستورةٌ أو شبهُ مستورةٍ.

هذِه المرأةُ تُلاقِي الرَّجلَ فتُقبِّله بحضورِ زوجِها وأَبيها، والعكسُ صحيحٌ، بينمَا تراهُ يَتصافحُ معَ الرَّجلِ!

وهذِه الحضارةُ قد جُعلتْ حظيرةً فِي الأخلاقِ والآدابِ والشَّرفِ، بلْ إنَّها جَعَلتِ الأخلاقَ فِي حظيرةٍ!

وهذِه الأنظمةُ المُحكَّمةُ قد سُخِّرتْ - أخيراً - لحربِ الإسلامِ والمسلمينَ، وحمايةِ السَّاميَّةِ كَما يُسمُّونها!

وهَذِه القوَّةُ تَعَاضدتْ لحربِ دولِ الإسلام، وسَلْبِ خَيْراتِها من بعيدٍ بعدمَا سَلَبَتْ خيراتِها من قريبٍ حينَ اسْتعمَرتْها.

جمالُ القوامِ لهمْ عنوانٌ: طولٌ فارِعٌ، وعرضٌ ضارِعٌ، ورياضةٌ دائمةٌ حتَّى فِي الشَّارِع... فتُعجبكَ هذِه الحالةُ، وتتمنَّى هذَا النَّشاطَ والالتزامَ بالرِّياضةِ لنفسِك وللمسلمينَ..، ولكنَّك فِي النِّهاية تندمُ ندماً شديداً علَى الأمورِ المعكوسةِ، فالمرأةُ عندهُمْ فِي كلِّ الرِّياضاتِ والتَّدريباتِ شبه خالعةٍ، بينمَا الرِّجالُ يلبسونَ سِرْوالاً أطولَ، وقميصاً أطولَ..!

انظرْ إلَى (التِّنس الأَرْضيِّ) وغيره، وستجدُ ما أقولُ لكَ - عافانَا اللَّهُ، وإيَّاكمْ من فتنةِ النَّظرِ.

وَيَا لِلعُرْفِ إذَا انْتكسَ..، ويَا للحياءِ إذَا أصبحَ رذيلةً..، وللمجاهرةِ إذا غَدَتْ أصلًا..، وللبكارةِ إذَا أصبحتْ عيباً لابنةِ العِشْرينَ!

الخُبَراء فِي سيارة النُّفايات!

حينَ رأيتُ هؤلاءِ الفرنسيِّينَ بشقرتِهم يَرْكبون خلفَ سيَّارةِ النُّفاياتِ وهُمْ يحملونَ مزابلَ البُيُوتِ قلتُ لأصحابِي: «انظروا إلَى الخبراءِ فِي سيَّارةِ النُّفاياتِ»، فضحكوا كثيراً وعلموا أنَّ المقصود أنَّنا هكذا ننظر إليهم فِي بلادنا! إنَّ قومنا فِي بِلادِنا إذا جاءهُمْ واحدٌ بصورتِه هذِه، وشقرتِه، وحُمْرتِه لابساً ربطةَ العنقِ وبَدْلةً لا تكلِّفه مائةَ يورو دونَ شهادةٍ، عَدُّوه خبيراً، وأعطوهُ مرتَّبَ الخبراءِ، بينما لو جاءهُم مسلمٌ .. دَارِسٌ فِي بلاد الغرب وهو يحمل أعلى شهاداتهم فِي ميدانه لكنَّ عينيه سوداوتان وَهُوَ عالمٌ فِي ميدانِه، لما أعطوهُ من المقرَّرِ المادِّيِّ ما يُعْطى أَقلُّ واحدٍ من هؤلاءِ! إنَّها صورةٌ للاغترارِ بقشرةِ أصحابِ الحضارةِ دونَ النَّظرِ إلَى ما تحتَ القشرةِ!

طيبات فِي فرنسا:

اقرأ . .

عادةٌ فِي الفرنسيِّينَ تمنَّيتُها فِي المسلمينَ.

وجدتُها فِي طوابيرِ الانتظارِ، فِي القطاراتِ، فِي الطَّائراتِ، فِي كلِّ مكانٍ، وربَّما فِي الحَمَّاماتِ، إنَّها عادةُ القراءةِ.

إنَّ القراءةَ عندهُمْ عُرْفٌ شائعٌ، وعادةٌ محكمةٌ، وشوقٌ لاهثٌ، والنَّادر هو مَنْ لا يحملُ كتاباً، ولا يقرأُ مجلَّةً، ولا صحيفةً.

ولعلَّك لنْ تجدَ فِي محطَّاتِ القطاراتِ والطَّائراتِ مَحلَّاتِ الملابسِ ولَا الأحذيةِ والحاجيَّاتِ الأُخْرى، لكنَّها لنْ تَخْلو من مكتبةٍ، والزِّحام الَّذي تجدهُ فِي داخلِ المكتبةِ أشدُّ من الزِّحامِ الَّذي تجدهُ فِي مطعمِ المحطَّةِ.

إنَّهم يَقْرأُون، ويَقْرأون، ثمَّ يَقْرأون.

الشَّابُّ يقرأُ، الخليعةُ تقرأُ، العجوزُ تقرأُ، الكبيرُ يقرأُ،

الصَّغيرُ يقرأُ، الأستاذُ يقرأُ، الجميعُ يقرأُ.

إنَّهمْ يَقْرأونَ؛ يَقْرأون القصصَ، يَقْرأون الحواراتِ، يَقْرأون ويقرأونَ؛ ولذا كانَ منطقيّاً أن تُثْمرَ القراءةُ تلك الحضارةَ العلميَّةَ الهائلةَ.

إنَّ الغريبَ فيهم هو الَّذي لا يقرأُ، والغريبُ فِي مُجْتمعاتِنا هو مَنْ يقرأ فِي طابورٍ أو قاطرةٍ أو طائرةٍ، بلِ الغريبُ أنَّ طلَّابَ المدارسِ والمعاهدِ لا يَقْرأون.

الغريبُ عندهُمْ هو مَنْ لا يُمْسك كتاباً، والغريبُ عندنا مَنْ يُمْسك الكتابَ ويحملهُ معهُ.

الغريبُ عندنا التَّزاحمُ علَى مكتبةٍ، والغريبُ عندهُمْ فراغُ المكتبةِ.

الغريبُ عندنا أن يحملَ الوالدُ لولدِه... لزوجتِه... لبنِيه كتاباً يَقْرأونه، بينمَا الهديَّةُ الأغلَى عندهُمْ كتابٌ يَقْرأونه.

وبهذَا، فكلُّ أصحابِ مجالٍ عندهُم يطوِّرون مجالَهم بهذه القراءةِ حينَ يُطوِّرون عُقولهمْ بِالْقراءةِ الذَّاتيَّةِ، وكلُّ أصحابِ مجالٍ عندنَا يَقْعدونَ فِي مواقعَ كَما بَدَأوا أوَّل مَرَّةٍ، فالتَّطوُّرُ عندنَا إنْ كانَ فبالأمرِ والعَصَا، والتَّطوُّرُ عندهُمْ التَّطوعُ فِي صُحْبةِ الكتابِ والقلمِ.

يا لحسرةٍ الْتَهبتْ فِي قلوبِنا حينَ نظرنَا إليهمْ، ونظرنَا إلَى أُمَّة الكتابِ الَّذي لا تنقضِي عجائبهُ، ولا يُمَلُّ من كثرةِ التَّردادِ، هذَا

القرآنُ بين أيدينا ثمَّ لا نقرأهُ، قالَ تعالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

ومعَ هذَا لا نقرأهُ، بلْ نخجلُ مِنْ قراءتهِ فِي المجامعِ، ولا نقرأُ تفسيرَه، ولا نقرأُ عُلومَهُ.

عندنَا النَّبيُّ الأُمِّيُّ ﷺ الَّذي ما تعلَّم مُتعلِّمٌ أو عالمٌ علماً نافعاً من بعده إلَى يومِ القيامةِ إلَّا وكانَ لرسولِ اللَّهِ ﷺ فِي عُنقِه مِنَّةٌ، فهُوَ الَّذي فازَ باختيارِ علماءِ الغربِ أنفسِهم الشَّخصيَّةَ الأولَى فِي التَّاريخِ كلِّه دونَ منازعٍ أو مقاربٍ، ومع هذَا لا نقرأُ سُنَّته ولَا تعاليمَه وعلومَه وفضائِلَه.

إنَّ أحدنَا يكتفِي بمَا استمعَ لهُ فِي مدرستهِ من علومِ القرآنِ والسُّنَّةِ يومَ أَنْ كانَ صغيراً فِي المدرسةِ، وما يتلقَّاهُ من فتاتٍ فِي خُطَبِ الجمعةِ، أو ما يعترضهُ من أحاديثَ طارئةٍ هُنا وهناكَ.

كيفَ يمكنُ أنْ يطالبَ مَنْ لا يَقْرأون الأممَ الأخرَى أنْ تقرأَ كِتابَهم وهَدْيَ نبيِّهم ﷺ!

لوْ قالَ أولئكَ مقالةَ المُعْرضينَ عَنْ هديِ النَّبيِّ ﷺ من أهلِ الجاهليَّة الأولَى لكانَ قولُهم حُجَّةً علينَا حينَ قالُوا: لوْ كانَ صادقاً لآمنَ به قومهُ، أَوْ لو كانَ صادقاً لقرأَ كتابَه قومُه، وقرأَ سيرتَه قومُه؟!

هَلْ فقهتِ يا أُمَّةَ القرآنِ - الآنَ - سرَّ الأخذِ بِقَوْلهِ: ﴿ٱقْرَأْ﴾؟

هَلْ رأيتِ ثمرةَ ﴿ٱقْرَأْ﴾ فِي الأممِ الَّتي استجابتْ لهَذَا الأمرِ، وأخذتْ بِهذَا السَّببِ؟

لقدْ تحقَّق لهَا ما أرادتْ وإنْ لمْ تقرأْ باسم ربِّها إلَّا أنَّها قرأتْ وتفوَّقتْ فِي مَجالاتِها، بينمَا بقيتْ أُمَّةُ ﴿ٱقْرَأْ﴾ بِلَا قراءةٍ، لا باسمِ ربِّها، ولا بدونِ اسمِ ربِّها، فَقَبعتْ فِي هذِه الفترةِ التَّاريخيَّةِ فِي نُفاياتِ العلمِ للأممِ المُتقدِّمة الَّتي تقرأُ علماً وحضارةً وتقدُّماً ومنافسةً.

لا نعلِّق مُصيبَتنا علَى حبلِ الحُكَّام المعتادِ، فنقولُ إنَّهم السَّببُ فِي ذلكَ؛ لأنَّ المدارسَ كذَا، والمعاهدَ كذَا، والكُلِّيَّاتِ كذَا، والمناهجَ كذَا! نَعَمْ، فِي ذلكَ من الحقِّ ما فيهِ، ولكنْ..

أليسَ لأولئكَ القومِ مدارسُ وكُلِّيَّاتٌ ومعاهدُ! فلِماذَا يَقْرأونَ خارجَ المدارسِ والمعاهدِ والكلِّيَّاتِ وخارجَ المناهجِ؟!

لماذَا جعلُوا من الشَّوارعِ والأرصفةِ والطَّوابيرِ وصالاتِ الانتظارِ مدارسَ، لماذَا أصبحُوا طلبةَ علمٍ فِي كلِّ مكانٍ، وفي كلِّ ميدانٍ، وعلى مختلفِ التَّخصُّصاتِ والأعمارِ؟!

لماذَا لمْ يتوقَّفوا عند منهجٍ مفروضٍ عليهمْ، أو ينقطعُوا عن القراءةِ بالخروجِ من المدارسِ؟

لماذَا يا أُمَّةَ ﴿ٱقْرَأْ﴾؟!

صفةٌ أخرَى عجيبةٌ وجدتُها عندَ أولئكَ القومِ أَلَا إِنَّها صفةُ العملِ، فهمْ مجتمعاتٌ عمليَّةٌ لأبعدِ الحدودِ حتَّى هذَا الجنسِ الطَّاغِي لا مكانَ لهُ فِي أثناءِ العملِ، وإنْ خرجتِ المرأةُ بأبهَى زينةٍ فلَا مجالَ ولَا تحرُّش إلَّا ما نَدرَ، فالجميعُ يعملُ ويعملُ ويعملُ، ولا يكلُّ حتَّى ينقضِي وقتُ العملِ، بلْ لَا تكادُ تشاهدُ امرأةً في أثناء العملِ وَضَعتْ مكياجاً، بينمَا انتشرَ المكياجُ عندنَا حتَّى بينَ الشَّبابِ، لكنَّه مكياجٌ رجاليٌّ، أمَّا النِّساءُ العاملاتُ فإنَّك لا تكادُ تجدُ امرأةً واحدةً فِي زحمةِ الموظَّفات مُكْتفيةً بِمَا وهبهَا اللَّهُ، تاركةً بَشْرتها ترتاحُ للتَّزيُّنِ لِزوجِها من هذِه الموادِّ الكيميائيَّةِ الَّتي أوَّلُ مُواصَفاتها المكتوبةِ عليهَا: طبيعيَّةٌ! إنَّها أُمَّةٌ عاملةٌ، أُمَّةٌ عمليَّةٌ.

تنطلقُ من الثَّامنةِ صباحاً حتَّى الخامسةِ مساءً دونَ تَوقُّفٍ إلَّا ساعةً واحدةً، بينمَا العملُ الحقيقيُّ عندنَا هوَ بمقدارِ ساعةِ

الرَّاحةِ الواحدةِ عندهُمْ.

ومِنْ أثرِ الجديَّةِ فِي العملِ أنَّك لا تكادُ تجدُ حركةً ولا حياةً فِي الشَّارعِ عندَ غروبِ الشَّمسِ، فالكلُّ قد أُرهقَ من العملِ، وهو فِي هذِه اللَّيلةِ يستريحُ ليستعدَّ للعملِ فِي اليومِ القادمِ، وهكذَا دَوَاليْكَ، بينمَا عندنَا العملُ بِلَا عملٍ، ويكونُ الخروجُ من العملِ خروجاً إلَى لا عملٍ، فالعملُ استراحةٌ، والرَّاحةُ فراغٌ، فالحياةُ عندنَا: (فإذَا فرغتَ فافرغْ) وللأسفِ!

فإذَا مَا جاءتِ الإجازةُ الأسبوعيَّةُ عندهُمْ كانَ لَها قيمتُها الأُسْريَّةُ والاجتماعيَّةُ؛ لأنَّ العملَ أخذَ منهُمْ مَأْخذاً، فيعودونَ فِي يومِ العملِ الأوَّلِ وَقَدِ استعدُّوا للأسبوعِ الجديدِ، بروحٍ عمليَّةٍ جديدةٍ، وعلَى هذَا الطَّريقِ تدورُ عجلةُ الحياةِ عندهُمْ.

مَا أكثرَ مَنْ يخلدونَ عندنَا للاسترخاءِ السَّارحِ وقتَ العملِ! وتطولُ فترةُ الاسترخاءِ النَّفسيِّ والشُّرود الذِّهنيّ وربَّما استغرقتْ وقتَ العملِ كلَّه.

نَعَمْ، مِنْ حقِّنا أن نَعْجبَ للحياةِ المادِّيَّةِ عندهُمْ، لكنْ هَلِ الْعلاجُ هو هذِه الصُّورةُ مِنَ الكسلِ واللَّامبالاةِ والغثيانِ الَّذي نعيشُه نحنُ يا أُمَّةَ ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ﴾؟!

فهُمْ حينَ أخذُوا بقولِه: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ﴾ وجدُوا الثَّمرةَ حضارةً، ووجدُوا الحضارةَ سابقةً، ووجدُوا العملَ

المُتواصلَ خيرَ حارسٍ لهَا، كمَا هِيَ سُنَّةُ اللَّهِ فيمَنْ أخذ بِسُنَّتِهِ، فاتَّخذُوا الأسبابَ سُلَّماً فوجدَوا حَصادَهَا.

ونحنُ أَخذْنا بالسُّنَّةِ المُقابلةِ، فلَا غَرْوَ أن تجدَ الفارقَ يتَّسعُ علَى مرِّ الأيَّامِ.

وَصَلُوا إلَى مَا يُريدُونَ لمَّا أَخذُوا بأسبابِه، ومِنْ أَسْبابِه: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ﴾، وإنْ لمْ يكنْ عملُهم للَّهِ، ولَا وَفْقَ شَرْعِ اللَّهِ، فهلْ أخذَ الَّذين أُنْزلَ عليهِمْ شرعُ اللَّهِ بالعملِ وَفْقَ شَرْعِ اللَّهِ، أمْ أنَّهم تركُوا العملَ، وتركُوا معهُ شَرْعَ اللَّهِ فوجدُوا عقابَ اللَّهِ مُلَازماً لا يُفارِقهُمْ؟!

والأهمُّ مِنْ كلِّ ذلكَ هِيَ أخلاقيَّاتُ العملِ، فالموعدُ المحدَّدُ عندهُمْ حتمٌ لازمٌ، والمخلُّ بموعدِه لَا قيمةَ لهُ، ولا يعتبرُ ذا قيمةٍ بعد الإخلالِ فِي كلِّ موعدٍ جديدٍ، والوفاءُ بالعهدِ خُلُقٌ، ولا يقبلُ النقضَ.

أمَّا الكذبُ، فما مِنْ خُلُقٍ يَنْبذونهُ مثل هذَا الخُلُقِ، والكذَّابُ لا قيمةَ لهُ ولا اعتبارَ.

وعدمُ المجاملةِ فِي العملِ هِيَ فائدةٌ كبرَى استفدتُها من أولئكَ الرِّجالِ، فصاحبُ الموعدِ السَّابقِ يعتذرُ من طالبِ موعدٍ لاحقٍ دونَ حرجٍ، بناءً علَى الموعدِ الأوَّلِ، والمعتذَرُ إليهِ يقبلُ الاعتذارَ دونَ أدنَى حرجٍ، فمَهْما كَانَتْ علاقتُك به حميمةً فإنَّه لن يقدِّمك علَى غيركَ من بابِ المجاملةِ أيّاً كانَ

الأمرُ، ومَهْما أصابكَ مِنْ ضيقٍ، فإنْ لَمْ تتعاملْ معهمْ وَفْقَ هذَا الأساسِ فسوفَ تموتُ كَمَداً.

لَا جدالَ فِي أثناءِ العملِ، فالأُمَّةُ العاملةُ لا وقتَ لهَا للمجادَلةِ.

أمَّا نحنُ، فالرَّجلُ العاملُ والمرأةُ العاملةُ كلٌّ يستعدُّ من اللَّيلِ لجدالِ الغدِ علَى مواضيعِ البارحةِ، وَقَدِ استحضرَ عُدَّة الانتصارِ فِي الجدالِ بِقُوَّةٍ جديدةٍ فِي الحِجَاجِ واللِّجاجِ.

جدالٌ علَى الرِّياضةِ والرِّياضيِّينَ، جدالٌ علَى مباراةِ البارحةِ، جدالٌ علَى مسلسلِ البارحةِ، وفِيلْم البارحةِ! وسباقاتِ الأمسِ.. ومصارعاتِ الأمسِ!

حتَّى ما نسمعُه وما نراهُ مِنْ حواراتٍ جِدِّيَّةٍ وندواتٍ نافعةٍ باللَّيلِ جعلنَا لها مُونتاجاً نفسيّاً جديداً تتحوَّلُ من خلالِه إلَى مادَّةِ جدالٍ!

وبهذَا نعرفُ سرّاً مِنْ أهمِّ أسرارِ التَّخلُّف يُضافُ لمَا مضَى، ذلكَ هُو ما ذكرهُ النَّبيُّ ﷺ: «ما ضلَّ قومٌ بعدَ هُدى كانُوا عليهِ إلَّا أُوتُوا الجدلَ» ثمَّ تَلَا رسولُ اللَّهِ ﷺ هذِه الآيةَ: «﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾»[1].

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٥٣)، وقال الألباني: حسن.

مَا مَرَرْنا فِي أروقةِ المستشفياتِ الكبيرةِ والكثيرةِ إلَّا ورأينَا النَّاسَ بعضُهم يُسلِّمُ علَى بعضٍ، والآخرونَ يردُّون السَّلامَ.

فمَا رأيتُ صورةً أقربَ لمَا وردَ فِي حديثِ النَّبيِّ ﷺ الَّذي يقولُ فيهِ: « . . . وتقرأُ السَّلامَ علَى مَنْ عرفتَ ومَنْ لم تعرفْ»(١).

حتَّى إنَّهم لوِ افترقُوا قليلاً، ثمَّ تَلاقَوْا لسلَّمَ بعضُهم علَى بعضٍ، والأكبرُ من هذَا هو التَّلازمُ الدَّائمُ ما بينَ السَّلامِ والابتسامةِ، حتَّى لكأنَّ الفمَ الفرنسيَّ قد رُكِّبتْ ابتسامتُه علَى أحرفِ «بُنْجُورْ»! فَبِمُجرَّد أنْ يقولَها تنفرجُ أساريرُه لمُقابِلِه معَ اهتزازِ رأسِه - خفضاً ورفعاً - بِخِفَّةٍ.

كما أنَّ أيَّ ناظرٍ لهم يجدُ أنَّ إسداءَ المعروفِ لهُمْ معناهُ كبيرٌ، ولو كانَ ذلكَ المعروفُ مجرَّدَ كلمةٍ، أو تقديمَه فِي

(١) متفق عليه، رواه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩).

الدُّخولِ إلَى المصعدِ أو الخروجِ منهُ.

فهذَا معروفٌ، والمعروفُ فَضيلةٌ منكَ عليهِ، ولذَا تحتَّم شكرُ هذَا المعروفِ عندهُمْ.

وسرُّ هذَا أنَّ هؤلاءِ النَّاس يتَّبعون النِّظامَ بِدِقَّةٍ، فهو الَّذي يُسيِّر حَياتَهُمْ، وهُمْ أُمَّةٌ بِلا عَواطِفَ، فإذَا ما قدَّمتَ أحداً فإنَّك كسرتَ النِّظام لأجلِه، وتعاطفتَ معهُ فوقَ المعتادِ؛ ولذَا فإنَّه يُقدِّرها جدّاً؛ لأنَّه نادراً مَا يَراهَا فِي مجتمعِهِ الكَبيرِ.

إيمانيَّات فرنساويَّة[1]

واهٍ لريح الجنة...

حِينَ نَظَرْتُ فِي تِلْكَ الرُّبُوعِ الخَضْراءِ بِأَشْجارِهَا الظَّليلةِ، وَجِبالِها المقسمةِ إِلَى مزارعَ وجنانٍ وعُرُوشِ عنبٍ وفواكهَ متنوِّعةِ الأحجامِ والألوانِ اشتاقتْ نفسِي إِلَى الجنَّةِ، وطارتْ لمَا وصفَ اللَّهُ، فذهبَ وَهَلِي إِلَى ما وعدَ اللَّهُ، واستشرفتْ رُوحي الجنَّةَ، فأصبحتُ أنظرُ بعينينِ: عينٍ إِلَى هذِه الرُّبوعِ والجنانِ، وَعَيْنٍ إِلَى ما يراهُ قلبِي، مِمَّا ذكر ربِّي - سبحانهُ - ووجدتُ - واللَّهِ - الفارقَ لَا يُوصفُ بينَ هذِه وتلكَ.

فمعَ أنَّه الإيمانُ بكلِّ ما قالَ اللَّهُ - تعالَى - إِلَّا أنَّ رُوحي تحسُّ بوحشةٍ رهيبةٍ وهي تنظرُ إِلَى هذِه الأشجارِ الكثيفةِ

(١) لا تستغربنَّ من نسبتي الإيمانيات إلى فرنسا، فتلك النسبة عائدة للموقع الذي هبَّت علينا فيه تلك الإيمانيات، ولأجل العلم بأن ليس للإيمان حدود، والإيمان لا يتقيَّد بأرضٍ أو زمانٍ..

وخصوصاً إذا حلَّ الظَّلامُ، حينَ أُقارنُها بالجنَّةِ، كما أقارنُ نساءَهم بالحُورِ، فأين مقام النساء في الدنيا من مقام تلكَ الحُورِ الَّتي لو أخرجتْ أُصْبعَها لأضاءتْ ما بينَ الخَافِقينِ، ولأطفأتْ نورَ الشَّمسِ.

إنَّ الوحشةَ مُلَازمةٌ لِغابَاتِهمْ لِكثَافتِها، ولِثَعابِينِها، ودَوابِّها، ولما يعيشُ علَى جُذُوعِها وجداولِ مَائِها الآسِنَةِ تحتَ تلكَ الظِّلالِ.

أمَّا جنَّةُ اللَّهِ - تعالَى - فالشَّجرُ يُناغمُك، وحركةُ الورقِ تُطْربُك، وطوبَى تُناولكَ ثيابَك أجملَ مَا تكونُ عليكَ من جُذُوعها ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾.

إيهٍ يا ثمارَ الخلودِ، ويا ظلالَ الخلودِ، ويا جنانَ الخلودِ، يا دارَ الأمانِ، متَى اللِّقاءُ والسَّلامُ؟ فكلُّ ما فيكِ أمانٌ وينادِي رُوحي أنْ هلمِّي للأمامِ، فهذه الدُّنيا موحشةٌ لكِ أيَّتها الرُّوحُ، والرَّواحُ عنكِ قادمٌ يوماً من الأيَّامِ، وكلُّ ملائكتِك أيَّتها الجنانُ تُنادِي أنْ هلمِّي للسَّلامِ فِي دارِ السَّلامِ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣ ، ٢٤].

لقد تذكرتكِ أيَّتها الجنانُ والطَّائرةُ تطيرُ علَى بلادِ اللَّهِ الخضراءِ مِنْ تَحْتنا، وتذكرتُكِ حينَ كانَ القطارُ منطلقاً بسرعةِ (٣٠٠ كم إلَى ٤٠٠ كم) فِي السَّاعةِ تمرُّ سِكَّتهُ علَى بساطٍ أخضرَ مديدٍ طويلٍ طويلٍ، كأنَّه حقلٌ واحدٌ مُتنوِّعُ الزُّروعِ والأشجارِ والثِّمارِ.

حِينَ تذكرتُ سَعةَ مُلْكِ المؤمنِ فِي الجنَّة، وأنَّه أكبرُ من هذِه الأرضِ كلِّها مراراً وتكراراً.

فقلتُ: يا ربِّ، هل نتملَّك كلَّ هذَا المُلْكِ فِي جنَّةِ اللَّهِ؟

هَلْ أنا مِمَّنْ سُجِّلت فِي سِجِلِّها الآنَ؟

هَلْ ثمَّةَ أملاكٍ قد سُجِّلتْ باسمِي هذَا؟

هَلْ سَأَرى ذلكَ بعينيَّ؟

هَلْ ستطأُ رِجْلي هذِه أرضَ المِسْكِ والزَّعفرانِ؟

أم أنَّه الحِرمانُ - نسألُ اللَّهَ العافيةَ.

هنَا عرفتُ قيمةَ الدُّعاءِ الَّذي قاله النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ سألَ اللَّهَ الجنَّة ثلاثَ مَرَّاتٍ، قالتِ الجنَّةُ: اللَّهمَّ أَدْخِلْهُ الجنَّةَ، ومَنِ استجارَ مِنَ النَّار ثلاثَ مَرَّاتٍ، قالتِ النَّارُ: اللَّهمَّ أَجِرْهُ مِنَ النَّارِ»[1].

فمَنْ ذَا يشعُر قلبُه قيمةَ هذَا الدُّعاءَ وهُو يقولُه؟

كلُّ هذَا سيكونُ - بإذنِ اللَّهِ وفضلِه - فكيفَ ستكونُ الحياةُ

---

(١) رواه النسائي (٥٥٢١)، وقال الألباني: صحيح.

فِي مُلْكٍ بهذِه السَّعةِ والعظمةِ، بينمَا يقولُ النَّبيُّ ﷺ: «موضعُ سَوْطِ أَحدِكُمْ مِنَ الجنَّةِ خيرٌ من الدُّنيا وما عليهَا»[1].

فاللَّهمَّ نسألكَ الجنَّةَ، ونعوذُ بكَ مِنَ النَّارِ.

يا ربِّ، ما أعظمَ الاشتياقَ لتلكَ المجالسِ الحقيقيَّةِ فِي تلكَ الظِّلالِ الخالدةِ، والأعمالَ النَّعيميَّةَ المتصاعدةَ المتجدِّدةَ فِي أرضٍ لا حدَّ لها، وزمنٍ لَا نهايةَ لهُ: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ١٢ - ٢٢].

(١) رواه البخاري (٢٧٣٥).

طول الصِّراط

لَطالَما فكَّرتُ فِي طول الصِّراط الَّذي تَعْبرهُ الخلائقُ يومَ القيامةِ، وحتَّى هذِه اللَّحظةِ لمْ أجدْ مَنْ فَصَلَ فِي هذِه المسألةِ، وشَفَى غَلِيلي.

ويكفِي لمَنْ ركبَ الطَّائرةَ ورآهَا كيفَ تقطعُ بِسُرعتِها النَّفَّاذةِ هذِه المسافاتِ، وتَطْويهَا، وتُطوَى البلادُ إثرَ البلادِ فِي ساعاتٍ، ثمَّ عادَ مُسْتحضراً النُّصوصَ الَّتي وردتْ فِي وَصْفِ جهنَّمَ، عَلِمَ كَمْ سيكونُ طولُ ذلكَ الصِّراطِ، وعَلِمَ أيَّ خطورةٍ سَيُواجهها مَنْ تُرِك يمشِي عليهِ أو يحبُو وَحِيداً، وَعَلِمَ أيَّ نَفْسيَّةٍ يمكنُ أنْ تكون لمن جاءَ دورُه لِيَعْبرهُ، ووضعَ رِجْلهُ، وتتابعتْ خُطَاه ليقطعَ هذِه المسافاتِ من قِمَّةٍ ليسَ أبعدَ مِنْ قَعْرهَا قِمَّةٌ رآهَا المرءُ فِي حياتِه.

هَذَا لَوْ كَانتْ تلكَ الهاويةُ بِلَا نارٍ لشهقَ قلبُ المرءِ مِنْ نَظَرِهِ إلَى أسفلَ منهُ، فكيفَ وما أسفلُه هِيَ نارُ اللَّهِ الموقدةُ الَّتي

استمعَ إليها فِي دارِ الدُّنيا.

عَنْ خالدِ بْنِ عميرٍ قالَ: خطبَ عتبةُ بن غزوانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقالَ: قَدْ ذُكِرَ لنَا أنَّ الحجرَ يُلْقى من شَفَةِ جهنَّم فيَهْوِي فيهَا سبعينَ عاماً، ما يدركُ لها قَعْراً، واللَّهِ لتُمْلأنَّ، أفعجبتُم[1]؟

لكَ أن تتصوَّرَ طولَ الصِّراطِ إذَا تصوَّرتَ سَعَةَ جهنَّمَ، وأنَّها مستديرةٌ، وأنَّ الخلائقَ منذُ أنْ خلقَ اللَّهُ أوَّل مخلوقاتِه مِنَ المكلَّفين؛ إنساً وجنّاً ومعهُمُ الملائكةُ مجتمعينَ حَوْلها فِي منظرٍ مثيرٍ للخوفِ والشَّفقةِ إذَا ضُرِبَ الصِّراطُ عَليْها ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨].

لكَ أنْ تتصوَّر طولَ الصِّراطِ إذا تصوَّرتَ أنَّ الجبلَ الطَّويلَ العظيمَ حجرٌ من أحجارِ جهنَّم.

لكَ أنْ تتصوَّر طولَها إذا كانَ عظمُ ضِرْسِ الكافرِ وطُولهُ مِثْلَ جبلِ أُحُدٍ، فكَمْ ضِرسٍ فِي فمهِ، وكَمْ سيكونُ حَجْمهُ، وَكَمْ فِي جهنَّم من تِلْكَ الأضراسِ وأُولَئكَ النَّاسِ؟!

لَكَ أنْ تتصوَّر طُولَها إذَا علمتَ أنَّ ثخانةَ جلدِ الْكَافرِ ومقعدَه مسيرةُ ما بينَ مكَّة والمدينةِ كَما فِي روايةِ التِّرمذيِّ قالَ: «إنَّ غِلَظَ جلدِ الكافرِ اثنانِ وأربعون ذِرَاعاً، وإنَّ ضِرْسه مثلُ

(١) رواه مسلم هكذا.

أُحُدٍ، وإنَّ مجلِسَه من جهنَّمَ ما بين مكَّةَ والمدينةِ»[1].

وعن مجاهدٍ قال: قالَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أتدري ما سَعَةُ جهنَّم؟ قلتُ: لَا.

قالَ: «أَجَلْ واللَّهِ، واللَّهِ ما تدري إنَّ بين شَحْمةِ أُذُنِ أحدِهم وبينَ عاتقِه مسيرةَ سبعينَ خريفاً، تجري فيهِ أوديةُ القَيْحِ والدَّمِ . . قلتُ: أنهارٌ؟ قالَ: لَا، بَلْ أوديةٌ»[2].

فَمَنْ يُقرِّب مسافةَ عبورِ الصِّراطِ إذَا لمْ يُقرِّبْه اللَّهُ - تعالَى -؟ ومَنْ يقطعُه مِنَّا بعملِه إذَا لَمْ يُدْركنا فضلُ اللَّهِ، وأيُّ قدمٍ ستثبتُ إذَا لم يثبِّتها اللَّهُ؟!

وأيُّ قُوَّةٍ تتحمَّل ولن تنهارَ إذَا لم تكنْ مِنْ عندِ اللَّهِ؟!

«والصِّراطُ كحدِّ السَّيف دحض مزلَّةٍ، قالَ: فيمرُّون علَى قَدْرِ نُورهِم، فمنهُمْ مَنْ يمرُّ كانقضاضِ الْكَوكبِ، ومنهُمْ مَنْ يمرُّ كالطَّرفِ، ومِنْهُمْ من يمرُّ كالرِّيحِ، ومِنْهُمْ مَنْ يمرُّ كشدِّ الرِّجلِ، ويَرْمل رَمَلاً، فيمرُّون علَى قَدْرِ أعمالِهم، حتَّى يمرَّ الَّذي نورُه علَى إبهامِ قَدَميْه، تخِرُّ يدٌ، وتَعْلقُ يدٌ، وتخِرُّ رِجْلٌ، وتَعْلقُ رِجْلٌ، فَتُصيبُ جوانبَه النَّارُ. .»[3].

فاقْطعِي ما شئتِ أيَّتها الطَّائرةُ، فلو تواصلتْ كلُّ طائراتِ

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٥٧٧) وقال الألباني: صحيح.

(٢) رواه أحمد بإسنادٍ صحيحٍ، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا والطبراني والحاكم، واللفظ له.

الدُّنيا بِسَيْرِها هذَا لما قطعتْ تلكَ المسافةَ، فيا حيُّ يا قيُّومُ، برحمتِكَ نستغيثُ.

آنِسْ هُنالِكَ يا ربِّ وَحْشتنا وتلطَّفْ وترفَّقْ عند ذاك بِنَا

نحنُ العصاةُ وأنتَ أنتَ ملجأُنَا وأنتَ مَقْصدُنا وأنتَ مُنْقذُنَا

فَكُنْ لنَا عندَ بأسهَا وشدَّتها أو لا فمن ذا الَّذي يكونُ لَنَا

عن حذيفةَ وأَبِي هريرةَ رضي الله عنهما قَالَا: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «يجمعُ اللَّهُ النَّاسَ . . .» فذكَرا الحديثَ، إلَى أَنْ قالَا: «فيأتونَ مُحمَّداً ﷺ فيقومُ ويُؤذَنُ لهُ، وتُرْسلُ معه الأمانةُ والرَّحمُ، فيَقومَانِ جنبتَي الصِّراطِ يميناً وشمالاً، فيمرُّ أوَّلكُمْ كالبَرْقِ» قالَ: قلتُ: بأبِي أنتَ وأُمِّي، أيُّ شيءٍ كمرِّ البرقِ؟ قال: «ألم تَرَوْا إلَى البرقِ كيفَ يمرُّ ويرجعُ فِي طَرْفةِ عينٍ، ثمَّ كمرِّ الرِّيحِ، ثمَّ كمرِّ الطَّيرِ وشدِّ الرِّحالِ تجري بهم أَعْمالُهم، ونبيُّكم ﷺ قائمٌ علَى الصِّراطِ يقولُ: ربِّ سلِّم سلِّم، حتَّى تعجزَ أعمالُ العبادِ، حتَّى يجيءَ الرَّجلُ فلا يستطيعُ السَّيرَ إلَّا زاحفاً. قالَ: وفِي حافَّتي الصِّراطِ كلاليبٌ مُعَلَّقةٌ، مأمورةٌ تأخذُ مَنْ أُمِرتْ بهِ، فمخدوشٌ ناجٍ ومكدوشٌ فِي النَّارِ، والَّذي نفس أَبِي هريرةَ بيدِه، إنَّ قَعْرَ جهنَّمَ لسبعينَ خَرِيفاً»[1].

فَاجعلنَا يا ربِّ أوَّلَ وأسرعَ مَنْ يدخلُها معَ رسولِك ﷺ

---

(١) رواه مسلم.

مزاج المسافرين

نَعَمْ، إنَّ مِنْ حقِّ الأصحابِ فِي السَّفرِ أن يَتمازَحُوا ويَتلاطَفوا، ولكنْ ليسَ من حقِّهم أن يَتآثَموا، فبينَ الأصحابِ تَحْيا الآدابُ، وبينَ الأصحابِ يظهرُ التَّنافسُ فِي الخيراتِ، والتَّباذلُ والتَّآنسُ والتَّحمُّلُ والتَّحاملُ والتَّعاذُرُ، وفي الأسفارِ يجبُ أنْ يكونَ علَى اللِّسانِ حارسٌ.

واللَّهُ - سبحانهُ - يقولُ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

ولا تتركِ المناصحةَ بِحُجَّة أنَّ الأصلَ فِي صحبةِ الأسفارِ هوَ التَّباسطُ، نَعَمْ، ولكنْ فِي غيرِ مَا يُغضِبُ اللَّهَ - تعالَى - من قولٍ أو عملٍ، والحمدُ للَّهِ، فلقدْ كانَ الصَّحبُ الَّذينَ - كما أَحْسبهُم - معِي خيراً منِّي، ولكنْ أذكرُ ما أذكرُ حفظاً للمسافرينَ الآخرينَ، وتتميماً لمادَّة هذَا الكتابِ، ثمَّ إنَّه أمرٌ شاعَ فيه الإثمُ بحُجَّة ما ذَكَرْنا.

يجبُ أَنْ يبقَى القدوةُ قدوةً حتَّى فِي السَّفرِ كمَا هُو فِي الحضرِ، يحرسُ دينَه ودينَ إخوانِه، ويحرسُ آخرتَه وآخرةَ إخوانِه، ويحرسُ أَلْسِنتهم مِنَ الإثمِ، وظُنُونَهم من السُّوءِ، وأبصارَهُمْ من الخيانةِ، ولَا يتركُ ذلكَ بحُجَّةِ التَّرضيةِ.

إنَّ كلَّ سفرٍ يهونُ إلَّا سفرَ يومِ القيامةِ، ونحنُ إذْ نكونُ مسافرينَ إلَى فرنسا أو غيرِهَا فإنَّا مسافرونَ سفراً فِي السَّفرِ الأكبرِ.

قيمة الموقع الجغرافي:

لَا يعرفُ المرءُ قيمةَ الموقعِ الجغرافيَّ الَّذي اختارهُ اللَّهُ - تعالَى - لنبيِّه ﷺ وأُمَّته علَى هذِه الأرضِ إلَّا بمعرفةِ حالِ الأممِ الأُخْرى، وكيفَ أصبحَ أداءُ صلاةِ الفريضةِ عَلَيْهم فِي وَقْتهَا - عندَ بَعْضهِمْ - مِنَ الهُمومِ بدلَ أن تُفرَّجَ بها الهُمومُ، فانظرْ إلَى توقيتِ الصَّلاةِ عِنْدهُمْ.

الظهر	العصر	المغرب	العشاء	الفجر
١,٣٩	٦,٣٠	٩,٣٥	١١,٣٠	٤,٣٠

أرأيتَ الرَّجلَ إذا خُيِّرَ بين عدَّةِ أراضي كيفَ يختارُ لهُ ولعيالِه بيتاً فِي أحسنِ موقعٍ، فللَّهِ المثلُ الأعلَى وهُو - سبحانهُ - أرحمُ بهذه الأُمَّةِ من الأبِ بعيالِه ومِنَ الأُمِّ بوحِيدِها الرَّضيعِ، لكنَّها الغفلةُ عَنْ نِعَمِ اللَّهِ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن

يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فالحمدُ للَّهِ الذي اختار لنا الجمعة وأضلهم عنها، اختارنا للمختار ﷺ، في هذا الموقع من المكان والزمان... وكل ما حولنا اختيار: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ فاللهم أعنا على شكرك وذكرك وحسن عبادتك.

حصن المسافرين:

لمْ أجدْ هُنا عاصماً - بإذنِ اللَّهِ - وحارساً للقلبِ مثلَ غضِّ البصرِ، إنَّك فِي الحالِ الَّذي تغضُّ فيهِ البصرَ تتذوَّقُ فيهِ - حقيقةً - لذَّةَ الإيمانِ واستعلاءَ العِفَّةِ، وقيمةَ الشَّرفِ، كما تبغضُ هذَا العُهْرَ الَّذي يموجُ فِي أجواءِ تلكَ البلادِ، فيتحوَّلُ عندهَا الحرامُ سبباً لزيادةِ إيمانِك، وعفَّتِك، وغَيْرتِك وحَصَانتِك، هذَا إذا كانَ دخولُك تلكَ البلادِ لمسوِّغٍ شرعيٍّ.

سرُّ صعوبةِ غضِّ البصرِ عندَ الابتداءِ هُوَ مفاجأةُ المَناظِرِ الَّتي تراهَا فِي وسائلِ النَّقلِ العَامَّةِ والقطاراتِ وأماكنِ الانتظارِ، تلكَ المفاجأةُ الَّتي لا تعرفُ حدّاً للجمالِ، ولا حدّاً للجنسِ، ولَا حدّاً لطريقةِ فِعْلِهِ فِي تلكَ الأماكنِ، وكيفَ يكونُ له حدٌّ إذَا كانَ أستاذٌ من أكبرِ أَساتِذتهم يقولُ لِي: «إنَّ الحياءَ أَمْرٌ سلبيٌّ!».

ففِي تلكَ المفاجآتِ المُتجدِّدة تطولُ النَّظرةُ الأُولَى، وتأسرُ العينَ طويلًا حتَّى تعرفَ جواباً علَى سؤالٍ طبيعيٍّ، هُو: ما هذَا الَّذي أراهُ؟

فتذكَّر أنَّه ضريبةُ المجيءِ إلَى هذَا المجتمعِ؟ وتذكَّر أثرَهُ علَى قلبِ وَلَدِك وحياءِ ابنتِك لو كانُوا هُنا! وتذكَّر أنَّه ابتلاءٌ لكَ، وأنَّ المَلَك المصاحبَ لكَ هُو هُو معكَ هُنا، وتذكَّر أنَّ اللَّهَ - سبحانهُ - ناظرٌ إليك فِي أرضِه هذِه، وتذكَّر: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ فَاقْطَعْ مِنْ أوَّلها، فما ألذَّ الانتصارَ علَى النَّفسِ والشَّيطانِ!

اثبتْ، فمَا أعظمَ الثَّباتَ فِي مواطنِ الفتنِ! واعلمْ أنَّ مَنْ حَفِظَ بصرَه وحفظَ فرجَه فِي المجتمعِ الَّذي يقولُ للمتعفِّف: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ لا يمكنُ أنْ ينحرفَ فِي مجتمعٍ يقولُ لهُ: «حيَّ علَى الصَّلاةِ، حيَّ علَى الفلاحِ» بإذن اللَّه!

لنْ يتمكَّن من تحصينِ قلبِه مِنَ التَّلوُّث مَنْ لم يُحصنْ نظرَه بالغضِّ، وعدمِ إتباعِ النَّظرةَ النَّظرةَ، ولنْ يتمكَّنَ من تجنُّبِ أوزارِ السَّفرِ مَنْ لم يعملْ بهذَا الحديثِ: «لا تُتْبِعِ النَّظرةَ، فإنَّ لكَ الأولَى، وليسَ لكَ الآخرةُ»[1].

وللمرءِ أَنْ يتصوَّر كَمْ سيتحمَّلُ هذَا القلبُ لو نُكِتَ فِي قلبِه

---

(١) رواه أبو داود برقم (٢١٥١)، والترمذي برقم (٢٧٧٧)، وقال عنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: حسن.

نكتةٌ سوداءُ لكلِّ نظرةٍ ينظرُها، فإنَّ المرءَ هُنا لا يكادُ يرَى إلَّا النِّساءَ العارياتِ أنَّى وَجَّه نَظَرَهُ..؟!

فكَمْ وكَمْ سيتضرَّرُ هذَا المسافرُ..؟!

وكَمْ سيتضرَّرُ إيمانُه..؟!

كَمْ سَتسودُّ بسفرِه صحيفتُهُ..؟!

كَمْ سيضعفُ بصرُه وسيخبُو نُورُه..؟!

كَمْ نكتة سوداءَ نُكِتَتْ فِي قلبِه..؟!

إنَّ العلاجَ بتحقيقِ تطبيقِ الحديثِ علَى الفهمِ الصَّحيحِ حيثُ يكونُ الغضُّ عندَ الإشارةِ الأُولى للنَّظرةِ قبلَ أَنْ تتمكَّنَ العينُ مِنْ ملامحِ الجمالِ، فلَا ينتظرُ حتَّى يستكملَ المرءُ النَّظرةَ الأولَى بحُجَّةِ أنَّها النَّظرةُ الأولَى، ولكَ أنْ تملأَ العينَ مِنْهَا! فاللَّهُ - تعالَى - يعلمُ خائنةَ الأعينِ وما تخفِي الصُّدورُ، فحينَ تأتِي الإشارةُ مِنَ البصرِ إلَى أنَّ هذِه امرأةٌ جاءتِ الإشارةُ مِنَ القلبِ المؤمنِ أنْ غُضَّ البصرَ، وهذَا الغضُّ الأَوَّليُّ إنَّما يتحقَّق بالدُّرْبة عليهِ، وبتحقُّقه يتحقَّق الانتصارُ علَى النَّفسِ الأَمَّارةِ، وتتحقَّق اللَّذَّة الإيمانيَّة بالغضِّ، ويسلمُ القلبُ، وتطهرُ الصَّحيفةُ، وتتحوَّلُ السَّيِّئاتُ إلَى حسناتٍ - بإذنِ اللَّهِ.

حينَ كنَّا ننتقلُ فِي أسواقِ فرنسَا كنتُ أنظرُ إلَى تلكَ الجموعِ المزدحمةِ، وأنظرُ فِي أعدادِ سُكَّانِ فرنسَا الَّذينَ زادُوا علَى السِّتِّينَ مليونَ نَسَمةٍ، وأقولُ فِي نفسِي: سبحانَ اللَّهِ! كلُّ هؤلاءِ معَ بَعْثِ النَّار الَّذينَ سيخرجهُمْ آدمُ عليه السّلام مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إلَى النَّارِ..؟!

سرحتُ قليلًا، وذهبَ فِكْري إلَى هناكَ، إلَى المقابرِ الفرنسيَّةِ، وتخيَّلتُ أبوابَها الَّتي يدخلُها كلَّ يوم عشراتٌ، ورُبَّما مئاتٌ وآلافٌ، فأصابتنِي الحسرةُ علَى القوم، وكأنِّي أرَى بعينيَّ أبوابَ مَقابرِهِمْ أبواباً مُشرَّعةً علَى جَهنَّمَ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

فرجعتُ إلَى نفسِي، وقلتُ: مَنْ يُوقفُ هذَا التَّقاحمَ علَى النَّارِ، مَنْ يأخذُ بِحُجزِ هؤلاءِ عَنِ النَّارِ؟

مَنْ يصرخُ فِي هذِه الجموعِ صرخةً يعلُو صوتُها وصدَاها علَى هذَا الصَّخبِ المُتعالِي، والضَّجيجِ المُصمِّ لهذهِ الجموعِ، وهيَ تتدافعُ إلَى النَّارِ، فيدركُها قبلَ دخولِ أبوابِ النَّارِ ولَوْ بلحظةٍ؟

أيُّ صرخةٍ تلك الَّتي ستبلغُ قلوبَ هؤلاءِ، وتتجاوزُ سُكْرهُمْ وعُهْرهُمْ وكُفْرهُمْ؟!

مَنْ يُخفِّف هذَا التَّزاحمَ علَى أبوابِ النَّارِ؟

وإلَّا فمَنْ ينقذُ ما يمكنُ إنقاذهُ مِنْ هؤلاءِ؟

نَعَمْ، إنَّها محنةٌ! أيَّامٌ عشناهَا لكنَّني شعرتُ من داخلِي أنَّ أمانةً ثقيلةً أُنِيطتْ بعنقِي، كمَا أنَّ لهؤلاءِ الَّذينَ عَالجُوني وَقَومهمْ حقّاً عليَّ، والحقُّ الأعظمُ هُوَ حقُّ شكرِ اللَّهِ الَّذي هدانِي لمَا لَا يعلمونَ، فاللَّهمَّ اهدِهِمْ فإنَّهم لا يَعْلمونَ.

إنَّ هؤلاءِ أحقُّ بالإشفاقِ عليهِمْ مِنْ الانتقامِ منهم.

فهُمُ الغَرْقَى، ولا يليقُ بالمُنقذِ أن يدوسَ علَى رأسِ الغريقِ.

إنَّهمُ المَرْضَى، ولا يليقُ بالطَّبيبِ أنْ يسمِّمَ المريضَ.

إنَّهم فَاقِدوا العقولِ، ولا يليقُ بوليِّ المجنونِ إلَّا أنْ يصبرَ عليهِ.

قالَ اللَّهُ تعالَى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

تفجير العداء:

دخلتُ محطَّةَ القطارِ فرأيتُ الزِّحامَ، فقلتُ فِي نفسِي: ما ذنبُ هؤلاءِ المساكينِ لوْ جاءَ مَنْ فَخَّخَ لهمْ سَيَّارةً وفَجَّرهُمْ..؟!

ماذَا لو ذهبتُ أنَا وأمثالِي المُسْلمونَ معهُمْ..؟!

بَلْ ماذَا لوْ أنِّي نجوتُ وعشتُ، ورآنِي أهلُ هؤلاءِ كيفَ سيكونُ وَضْعِي..؟!

أينَ سأذهبُ بعدَ فرنسَا فيمَا لوْ كنتُ مَطْروداً مِنْ بلدِي، مُطَارداً بقوانينِ الإرهابِ فِي كلِّ مكانٍ - لا قَدَّرَ اللَّهُ - أينَ ستذهبُ أُسْرتِي..؟!

فضلاً عن أنْ أسألَ عَنْ قَبُولهِمْ دَعْوتي بعدَ اليومِ، إنَّه تفجيرٌ فِي الدَّعوةِ، تفجيرٌ فِي المشاريعِ الإسلاميَّةِ!

إنَّها النَّتيجةُ الحتميَّةُ عقليّاً، والَّتي جاءتْ بِمَفْعولها القاتلِ فعليّاً، ومَنْ تردَّد فِي قَبُولِ هذِه الفكرةِ فليتركْ استرخاءَهُ الدَّعويَّ فِي بلدِه، ولينحِّ الحماسةَ العاطفيَّةَ بعيداً، وليذهبْ إلَى أولئكَ الدُّعاةِ المُهاجِرينَ، والمطرودينَ المُهجَّرينَ، وأصحابِ المشاريعِ الدَّعويَّةِ والعلميَّةِ فِي بلادِ الكفرِ، وليسألهُمْ عَنْ حقيقةِ مَا أَصَابهُمْ، وكيفَ كانَ وَضْعهُمُ الدَّعويُّ؟ وكيفَ أصبحَ..؟!

وأيُّ علوٍّ للكنيسةِ عَلَا عليهِمْ بعد التَّفجيراتِ المَنْسوبةِ للمُسْلمينَ..؟!

وأيُّ رِدَّةٍ تعرَّضَ لهَا الكثيرُ مِنْ أبنائِهِمْ، إذْ فوقَ ضَعْفِ إيمانهِمْ جاءَ اسْتِضعافُهُمْ..؟!

بلْ أيُّ رِدَّةٍ تلكَ الَّتي شاعتْ فِي العديدِ مِنَ البِلادِ الإسلاميَّةِ المنكوبةِ، حينَ أُغْلقَ فِي وجوهِ الجمعيَّاتِ الدَّعويَّةِ والخيريَّةِ الإسلاميَّةِ بابُ الدُّخولِ علَى تلكَ المناطقِ، وأُلْزِمُوا بالرَّحيلِ عنهَا، وفُتحتِ الأبوابُ علَى مَصارِيعهَا للدَّعواتِ التَّنصيريَّةِ وأمثالِها لتفترسَ المنكوبينَ، عقيدةً وخلقاً.

آهٍ، كيفَ الدُّخولُ إلَى هؤلاءِ؟ أيُّ نورٍ يخترقُ هذِه الظُّلماتِ الَّتي مداهَا قرون، ومِساحتُها مَلَايينُ الطَّبقاتِ، وكلُّ هذِه الملايينِ مِنْ حولِها ملايينُ فِي البلادِ المجاورةِ، وهكذَا تتَّسعُ المساحاتُ وتعلُو الحصونُ؟! إنَّ الكفرَ هنا فِي حصنٍ حصينةٍ!

أنا الَّذي كنتُ ولا أزالُ أُنادِي بأنَّ لكلِّ صعوبةٍ حلّاً، ولكلِّ معضلةٍ مفتاحاً، ولكلِّ ظلمةٍ نوراً... اليومَ أقفُ وكأنِّي قد أُسْقِطَ فِي يدِي، أمامَ صَرْحِ الكفرِ الَّذي أَطْبقَ علَى طموحِي هناكَ مِنْ كلِّ جهةٍ.

أنا الَّذي كتبتُ البدائلَ النَّافعةَ فِي كتابِي «الغراس»، واليومَ لَا أجدُ بصيصاً نافعاً..!

فكَّرتُ، وجهدتُ فِي التَّفكيرِ، استعنتُ باللَّهِ، واستغثتُ بهِ، فوجدتُ بدلَ المَشْعلِ الواحدِ مشاعلَ نورٍ، وبدلَ النَّوعِ الواحدِ أنواعاً مِنَ الأنوارِ، ولكن مَنْ يأخذُها بِقُوَّةٍ، مَنْ يعملُ بِها مِنْ فَوْرِه؟

لَا بأسَ، فلنعملْ ولوْ بخطوةٍ واحدةٍ صحيحةٍ علَى الطَّريقِ المستقيمِ..

فالزَّبدُ وإنْ كَثُرَ وأغرَى فإنَّه رغاءٌ وهباءٌ ولا قرارَ لهُ، والحقُّ راسخُ الجُذورِ، ممتدُّ الأغصانِ إلَى السَّماءِ، وسهمُ النُّورِ الواحدُ لا تُوقفُه طبقاتُ الظُّلماتِ وإنْ تكاثفتْ وتكاتفتْ، لكنَّ السُّؤالَ هُوَ: من الَّذي يمشِي بهذَا النُّورِ فِي تلكَ الظُّلماتِ؟

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وإليكَ بعضُ مَا دارَ فِي خَلَدي وخَلَدِ صُحْبةِ السَّفرِ مَعِي:

سهم النُّور الأوَّل: العرب... العرب

العربُ هُمْ مادَّةُ الاسلامِ وحَامِلوهُ الأوائلُ إلَى هذِه الأمم، فهمُ المُجرَّبونَ فِي نشرِه، فلماذَا نجرِّبُ غيرَهم؟! فلتكنِ البدايةُ بِهِمْ.

لكنَّ السُّؤالَ: أينَ هؤلاءِ العربُ المُتفرنِسونَ مِنَ الإسلامِ؟!

أينَ هؤلاءِ العربُ مِنَ العربيَّةِ والعروبةِ، ولغةِ العربِ، وأخلاقِ العربِ؟!

لمْ يبقَ للإسلامِ فِي أكثرِ هؤلاءِ العربِ إلَّا الاسْمُ، وبقايَا مُنَاسباتٍ؛ كالأعيادِ، ورمضانَ، وربَّما يومُ الجُمعَةِ!

أمَّا شبابهُمْ فطُمُوحهُمْ «الفرنسةُ»؛ ظاهراً وباطناً، فالمستضعفُ مجبولٌ علَى تقليدِ الأقوياءِ، فكيفَ المُخْرجُ مِنْ بَلَدِهِ.. الَّذِي لا ظهرَ لهُ ولَا ركنَ ولا سندَ.. ويتمنَّى حضنَ هذَا البلدِ؟!

ومعَ هذَا أقولُ: لا بدَّ مِنَ العربِ، ولا بدَّ من البدايةِ بالعربِ..

نَعَمْ، الأمرُ صعبٌ! والحكومةُ الفرنسيَّةُ لا تسمحُ للمجلَّاتِ العربيَّةِ العاديَّةِ بالدُّخولِ للبلادِ، فكيفَ تتركُ الدَّعوةَ الإسلاميَّةَ أو مراكزَها وتسمحُ لهَا بالانتشارِ فِي هذِه البلادِ؟

ومعَ هذَا، فلا بدَّ من البدايةِ: البدايةُ بالعربِ..

ولتكنِ البدايةُ - فرضاً - بهذِه الأفكارِ، وسِهامِ الأنوارِ:

لتكنِ البدايةُ بالاستفادةِ من هَبَّةِ الإيمانِ فِي مواسمِ الإيمانِ، عندنَا رمضانُ، عندناَ الحجُّ، وسوفَ أضربُ المَثلَ بإنشاءِ حَمْلةٍ للحَجِّ، وبما أنَّنا نريدُ إنشاءَ جيلٍ راسخٍ فلا بدَّ أن يكونَ أساسُه راسخاً، ومن ثَمَّ فلو عُمِلتْ مسابقةٌ لحفظِ القرآنِ الكريمِ، أَوْ حفظِ نصفِه حفظاً مُتْقناً، معَ حفظِ أَلْفِ حديثٍ معَ دراسةٍ مختصرٍ فِي العقيدةِ، وفِي الفقهِ، وفِي كتابِ الطَّهارةِ، وكتابِ الصَّلاةِ، وكتابِ الصِّيامِ، وكتابِ الزَّكاةِ، وكتابِ الحجِّ مِنْ كتابِ فقهِ السُّنَّةِ للسَّيِّد سابق، أَوْ كتابٍ أكثرَ منهُ اختصاراً ككتاب «فقه السنة الميسر»، وجُعِلَ سنَّ المتقدِّمينَ ما بين العِشْرينَ والثَّلاثينَ، والعشرُ الأوائلُ

يُؤْخذونَ إلَى الحجِّ مَجَّاناً علَى حسابِ المُحْسنينَ.

وأُعدَّ هؤلاءِ إعداداً علميّاً وتربويّاً للحجِّ، وأُعِدُّوا فِي الحجِّ إعداداً إيمانيّاً وعقديّاً ودعويّاً، حيثُ الصِّناعةُ الرَّبَّانيَّةُ الخاصَّةُ فِي تلكَ المناسكِ، ثمَّ لقاءاتٍ معَ رجالاتِ أهلِ العلمِ والدَّعوةِ جامعِي العلمِ والتَّقوَى والبصيرةِ فِي الحياةِ، سيصبحُ هذَا العددُ بعدَ عامٍ واحدٍ نحواً من الخمسينَ بكلِّ سهولةٍ - بإذنِ اللَّهِ وحدَهُ - ولَتَضاعفَ هذَا العددُ من هذِه النَّوعيَّة من الشَّبابِ المجدِّد لأمرِ الدِّينِ للعربِ المغتربينَ أَوَّلاً، وللفرنسيِّينَ الأصليِّينَ ثَانياً..

ومِنْ هؤلاءِ الفِرْنسيِّينَ يُصْنعُ دعاةٌ وَفْقَ منهجٍ مُحْكمٍ يقومُ علَى الكتابِ والسُّنَّة، يعتمدُ الحوارَ العلميَّ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، القائمِ علَى دراسةٍ منهجيَّةٍ مُتعمِّقةٍ فِي خصائصِ معتقداتِ القومِ، وهؤلاءِ يَحْميهم قانونُهم مِنْ ظُلْمِ بنِي قَوْمِهِمْ.. وقد مضت خطة هذا المنهج كاملة في كل العلوم وهو منهج متخصص في تحويل عامة المسلمين إلى دعاة حقيقين فضلًا عن المسلمين الجدد كذلك فاللهم حقق ذلك وبارك.

ألَا نستطيعُ معاشرَ المسافرينَ أنْ نتعاقدَ معَ أوثقِ النَّاسِ مِنْ أهلِ العلمِ والأمانةِ أَنْ يُزكُّوا لنَا كلَّ عامٍ مجاميعَ لكلِّ بلدٍ من بلادِ الإسلامِ فيهِ جامعاتٌ شَرْعيَّةٌ أو معاهدُ شَرْعيَّةٌ لينهلُوا العلمَ ويعودُوا.. نَعَمْ، يُوجَدُ اليومَ مِنْ هَؤُلاءِ.. لكنَّهم

أفراد، ونحنُ نريدُها أكبرَ..، نريدُها عمليَّةً مُؤسَّسيَّةً يعمُّ خيرُها ويسرعُ نضجُ ثمرِها، وثمرُها الَّذِي نريدُ هُو إنقاذُ قَوْمِهِمْ، وإنقاذُ أنفسِنا بِقيامِنَا بحقِّ التَّبليغِ علينَا.

كَمْ مِنْ إِخْوانِنا المسافرينَ؛ مسؤولينَ وكبراءَ.. لوْ تكلَّموا معَ الجامعاتِ لَقَبلُوا كلمتَهم، وأَمْضَوْا شَفاعَتهُمْ..، فَلِمَ لا يكونُ هذَا البابُ عَنْ طَريقِهِمْ وطريق العامة كذلك؟

سهم النُّور الثَّاني: العلم بالضَّروريَّات أَوَّلًا:

فأمَّا عامَّةُ العربِ المغتربينَ فإنَّ المرءَ مطالبٌ أن يدخلَ مَعهُمْ فِي سباقٍ معَ الموتِ، فالواجب أن نَسْعَى جاهدينَ إلى أَنْ نُدْركَهُمْ قبلَ أن يمضوا فِي طريقِ الرِّدَّةِ الَّذي مضَى عليه غيرهِمْ وعلَى أَجْيالِهِمْ مِنْ بَعْدهم، كيفَ وأكثرُ هؤلاءِ العربِ المُتفرنِسينَ علَى جهلٍ عظيم يصلُ إلَى درجةِ الرِّدَّةِ، - عياذاً باللَّهِ تعالَى-، وجهلٍ بأساسيَّاتِ هذَا الدِّينِ وأركانِه خشيةَ تحمُّلنا المسؤوليَّة أمامَ اللَّهِ عَنْ واحدٍ من هؤلاءِ فضلاً عن أَكْثرِهم، فإنَّنا لابدَّ أن نقومَ - وعلَى الفورِ - بما يمكنُ أن نقومَ بهِ لننقذَ مَا يمكنُ إنقاذُه، فإنَّ منهجيَّة الدُّولِ الأوربيَّةِ فِي هؤلاءِ هِيَ الطَّمعُ فِي الجيلِ الثَّالثِ من المغتربين، وَقَدْ جرَّبوا ونجحُوا، وتغيَّرتْ فروعٌ عن أصولٍ، وتنصَّرتْ أجيالٌ فرَّتْ بها آباؤُها وأجدادُها طمعاً فِي لقمةٍ من جوعةٍ، وأمنٍ من خوفٍ، أو طمع أب مغرَّر به فِي تفجُّر عقليَّةِ وَلَدِه بعلومٍ حديثةٍ عندَ أهلِ العلمِ الحديثِ..

وعلَى مساحاتِ هذِه الكرةِ الأرضيَّةِ مِنْ غيرِ البقعةِ الإسلاميَّةِ يستقرُّ المَلايينُ مِنَ المُسْلمينَ المُهاجِرينَ والمُهجَّرِينَ..

ويمضِي الأب المهاجر الأوَّلُ إلَى ربِّه فِي أمانٍ علَى ولدِه وابنتِه، وتبدأُ معاناةُ أرملته الضَّعيفةِ العجوز معَ الأبناءِ الصِّغارِ والشَّبابِ... الذُّكورِ والإناثِ، ويبدأُ التَّغييرُ الفعليُّ بالخُلُقِ، ثمَّ بالتَّحلُّلِ، ثمَّ بالزَّواجِ من أبناءِ وبناتِ ذلكَ المجتمعِ، ثمَّ بالإلحادِ أو العَلْمنةِ، وربَّما بالتَّنصُّرِ، ثمَّ يأتِي الجيلُ الثَّالثُ، جيلُ مَسْخِ الجذورِ! وربُّك يعلمُ مَنْ كانَ السَّبب الأوَّل حتَّى لو مضَى ومات، فهُو هناكَ فِي دارِ الحسابِ، لا يقدرُ علَى تكفيرٍ ولا استغفارٍ، معَ أنَّه رُبَّما حُذِّر وأُنذرَ من هذَا المصيرِ، لكنَّ نَظرَه القصيرَ، وتهاونه في التزام الحُكمِ الشَّرعيِّ الخطير، وتهوينَ أمرِ التَّغييرِ فضلاً من تحوُّلِه إلَى ردَّةٍ وتنصيرٍ، وكانَ ما كانَ، وذابَ دينُ الذُّرِّيَّةِ فِي أتُونِ البلادِ النَّصرانيَّةِ!

أيُّ ضغطٍ يَحْتملُه طفلٌ مغتربٌ: خلطةُ المدارسِ، إباحيَّةُ الإعْلام، الصَّحافةُ اليوميَّةُ، الصُّورُ فِي الشَّارع، الأصحابُ، الأنديةُ الرِّياضيَّةُ، الطُّموحاتُ البشريَّةُ، الأسواقُ، وربَّما الشُّرطةُ، ثمَّ تأتي العلاقاتُ، والتنازلات والنزول من خلال ضغط الوظائفُ، الاحتكاكُ، الإحراجاتُ، مسحُ آثارِ الاغترابِ أو العروبةِ والإسلام، المحاكاةُ الدَّقيقةُ لِلَّهجةِ، وطريقةِ أداءِ الكلمةِ الفرنسيَّةِ! ولغات البُلْدانِ الغَربيَّةِ.

واللَّهِ، لوْ ماتَ الرَّجلُ مِنْ شدَّةِ التَّعذيبِ أو الجوعِ أو مات فِي السِّجنِ فِي بلدِه العربيِّ والمسلمِ - نسألُ اللَّهَ العافيةَ - لكانَ خيراً لهُ عندَ اللَّهِ مِنْ أن يرتدَّ واحدٌ من ذُرِّيَّته بسببِه، فاللَّهُ - سبحانهُ - يقولُ: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾.

وَقَدْ أدركَ كثيرٌ مِنَ المسلمينَ هذِه المسألةَ الخطيرةَ، فأصبحُوا يَتحَوْصلُونَ علَى أنفسِهِمْ فِي مجتمعاتٍ مُصغَّرةٍ داخلَ المجتمعاتِ الأُوروبيَّةِ والأمريكيَّةِ مُحاوِلينَ تَحْقيقَ أعلَى قَدْرٍ مِنْ الْاكتفَاءِ الذَّاتيِّ..

والواجبُ كبيرٌ، والأمانةُ ثقيلةٌ، والذِّئابُ العقديَّةُ والانحلاليَّةُ علَى الأبوابِ بانتظارِ رحيلِ الحارسِ، وإلَى أنْ يرحلَ ربَّما تَخطَّفتْ بنتاً هُنا وولداً هناكَ، أما إذا رحل فأمر الوحدة في شتات.. وما للغنم المبعثرة في الأرض المسبعة الشاتية المطيرة إلا النهاية المريرة!.

فاللَّهمَّ اغفرْ لِلأوَّلينَ وارحمهُمْ، واحفظِ الباقينَ، وحَوِّلهُمْ دعاةً إلَى هذَا الدِّينِ.

ولابدَّ لنَا - الآنَ - من أن ندرك هؤلاءِ بنشرِ الحنيفيَّةِ السَّمحةِ بينهُمْ، لابدَّ من بيانِ مَا لا يسعُ المسلمُ جهلَه فِي قضايَا أركانِ الإيمانِ، وبيانِ ما لَا يسعُ المسلمُ جهلَه فِي أركانِ الإِسْلامِ، وبيانِ ما لَا يسعُ المسلمُ جهلَه فِي الحلالِ والحرامِ، ثمَّ فِي الآدابِ مِنْ خلالِ كتيباتٍ وأشرطةٍ يُراعى

فيهَا حالُ المُخاطَبِ ولغتُه، فهُو لَا يعرفُ اللُّغةَ العربيَّةَ، ولا الآدابَ العربيَّةَ، وبالأسلوبِ الَّذي يتقبَّلونَه ويَرْغبُونهُ.

سهم النُّور الثَّالث: معهد لتعلُّم اللُّغات:

يقولُ البعضُ: ربَّما يكونُ إنشاءُ معهدٍ إسلاميٍّ فِي تلكَ البلادِ أفضل من معهدٍ للُّغاتِ..

أقولُ: إنَّ مَنْ رَأَى شدَّةَ التَّضييقِ علَى دعاةِ الإسلامِ ومؤسَّساتِها فِي تلكَ البلادِ علمَ أنَّ أيَّ اسمٍ أو شعارٍ أو إعلانٍ فيه اسمُ الإسلامِ أَوْ فِي أهدافِه... مُحارَبٌ وممنوعٌ من أساسِه..

فالكنيسةُ كُلُّها عيونٌ راصدةٌ، والحكومةُ لطلباتها آذانٌ صاغيةٌ..

ومَنْ رأَى أنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ هِيَ مادَّةُ الكتابِ والسُّنَّةِ، ثمَّ رَأى بعينيهِ ما وصلَ إليهِ حالُ العربِ المغتربينَ من جهلٍ رهيبٍ باللُّغةِ العربيَّةِ عَلِمَ ضرورةَ إعادةِ العربِ للعربيَّةِ، فَكَمْ تجدُ فِي كلِّ مكانٍ من هذَا المجتمعِ الفرنسيِّ رجالاً ونساءً مِسْحتهُمْ عربيَّةٌ، وخِلْقتهُمْ عربيَّةٌ، فإذا كَلَّمتهُمْ وجدتَهم لَا يفهمونَ مِنْ لغةِ العربِ إلَّا: «السَّلامُ عليكُمْ، وباركَ اللَّهُ فيكَ»، ويَفْهمُكَ بعد عناءٍ شديدٍ، وهُو أصلاً من المغربِ أو مِنَ الجزائرِ أو تُونس..

إذَا رأيتَ ذلكَ علمتَ كَمْ ربحَ الاستعمارُ الفرنسيُّ حين

فَرْنسَ هؤلاءِ بِسَلْبِ لغتِهِمُ العُظمَى مِنْ أَلْسِنتهم، ورَكَّبَ بدَلها اللُّغةَ الفرنسيَّةَ يومَ أنِ احتلَّ بلادَهم!

والتَّاريخُ يثبتُ قاعدةً أنَّ: (مَنْ كسبَ معركةَ اللُّغةِ كسبَ معركة المستقبل فِي ميدانِ القلوبِ والأجيالِ والمعتقداتِ)، وهذَا ما وقعَ لكثير من بني جِلْدتنَا من أهلِ المغربِ..

فإنَّ بعض المؤرِّخينَ يَعْزُونَ اقتلاع جذور الإسلام عَنْ أسبانيَا دونَ غيرِها من الممالكِ الَّتي فتحهَا الإسلاَمُ أنَّ الاستعمارَ الأسبانيَّ استطاعَ أن ينتزعَ اللُّغةَ العربيَّةَ من الألسنةِ، بلِ استطاعَ أن ينتزعَ الأسماءَ العربيَّةَ مِنْ أصحابِها، وبسلْبِ اللُّغةِ العربيَّةِ سُلِبَ دينُ النَّاسِ، فعادُوا كُفَّاراً يَتوارثُهمْ كُفَّارٌ... جيلاً بعد جيلٍ، وقبيلاً إِثْر قبيلٍ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللَّهِ..

ولهذا السَّببِ نفسِه تجدُ أنَّ ضعفَ لغةِ أهلِ المغربِ العربيِّ خاصَّةً أثمرَ ضعفَ دِينهِمْ من دونِ بقيَّةِ قومهِم العربِ مِنْ أهلِ المشرقِ، وأنَّ معتقداتِ الكفَّارِ وأَخْلاقياتِهم أكثرُ فُشُوّاً فِيهِمْ مِنْ أهلِ المشرقِ معَ أنَّ كلا الاثنينِ استُعْمِرَا، ذلكَ أنَّ الفارقَ الأكبرَ كانَ اللُّغةَ، فحينَ غدتْ لغةُ القرآنِ غريبةً عليهِمْ أصبحَ القرآنُ والسُّنَّةُ غريبينِ عليهِمْ، فضلاً عن غربة الرَّصيدِ العلميِّ الإسلاميِّ الهائلِ مِمَّا كتبهُ العلماءُ طوالَ القرونِ المتطاولةِ، ومِنْ ثَمَّ فمَنْ أرادَ إعادةَ الإسلامِ لهَؤلَاءِ المغتربينَ العربِ

فليبدأْ بمعهدِ اللُّغاتِ أَوْ معهدِ اللُّغةِ العربيَّةِ، وليجعلْ لهُ بعدَ فترةٍ أفرعاً فِي مختلفِ المحافظاتِ، وليكنْ بعيداً عن قوانين محاربةِ الإسلام، محميّاً بالقوانين الفرنسيَّةِ، وإنْ كانَ ولابدَّ فليعلِّم اللُّغةَ العربيَّةَ والإنكليزيَّةَ مثلاً، ولكنْ لا بدَّ أنْ يكونَ عمادُ المنهجِ ومُعْتمدُه ومادَّتهُ وأمثلتُه هِيَ القرآنُ الكريمُ وأحاديثُ النَّبيِّ ﷺ وأشعارُ الحكمةِ والأدبِ الَّتي تأخذُ بأيدِي هؤلاءِ نحوَ نهضةٍ عقديَّةٍ أخلاقيَّةٍ أدبيَّةٍ..

وعندمَا يتقوَّى هؤلاءِ فِي اللُّغةِ العربيَّةِ فإنَّهُمْ لا بدَّ أن يَعودُوا إلَى الإسلامِ - بإذنِ اللَّهِ تعالَى..

ثمَّ إنَّ مَعْهداً مثل هذَا ينبغِي أن يمنحَ شهادةً معتمدةً، ثمَّ يؤهلَ لإنشاءِ مدرسةٍ للُّغاتِ، ونحوِ ذلكَ، بحيثُ تنتشرُ الفكرةُ وتتصاعدُ، وتصبحُ مرحلةً فِي طريقِ العودةِ إلَى الإسلامِ علَى ظهرِ اللُّغةِ العربيَّةِ المباركةِ..

فَمِنْ بَوَّابةِ اللُّغةِ العربيَّةِ يعودُ هؤلاءِ - بإذنِ اللَّهِ - إلَى بَوَّابةِ كتابِ اللَّهِ وسُنَّةِ نبيِّهِ ﷺ..

سهم النُّور الرَّابع: الكتاب بالفرنسيَّة:

مَنْ عَرف الرُّوحَ الفرنسيَّةَ العاشقةَ للكتابةِ القصصيَّةِ والكتابةِ فِي المناظراتِ عرفَ قيمةَ الكتابِ الَّذي يقتحمُ قلوبَ هؤلاءِ، وحاجتَنا لإدخالِهِمْ إلَى الحقِّ عن طريقِ الكتابِ المحبَّبِ لهُمْ عُنْوانهُ، أوِ المحبَّبِ لهُمْ كاتبُهُ، أو المحبَّبِ لهُمْ مَوْضوعُه..

فَهَلْ نستطيعُ أنْ نكتبَ فِي هذَا الجانبِ، ونهديهِ لتلكَ الشَّخصيَّاتِ معَ بيانِ حرصِ الكاتبِ علَى رَأْيكُمْ - كمَا يُقالُ؟

أمْ هلْ نستطيعُ أنْ نكتبَ كتاباً فِي الرَّدِّ علَى أشهرِ ما يُقرَأُ، ويُباعُ عندهُمْ فِي المكتباتِ مِنْ غيرِ أَنْ يحملَ عُنْواناً إسلاميّاً؟

أَمْ هلْ نستطيعُ دعوةَ كاتبٍ مشهورٍ حتَّى يدخلَ الإسلامَ، وذلكَ مِنْ خلال الانتقاءِ لنوعيَّاتٍ مُعيَّنةٍ مِنْ مشاهيرِ مُفكِّريهِمْ وكُتَّابهِمْ، ولأجلِ تحقيقِ هذَا الهدفِ لا بدَّ من التَّفرُّغِ لأجلِه، وتفريغِ نوعيَّةٍ خاصَّةٍ مناسبةٍ لهُمْ، ولتبدأْ بالمُراسَلةِ والمُناظرةِ والمُحاوَرةِ بالإنترنتْ، ثمَّ اللِّقاءاتِ حتَّى يُسْلمَ مَنْ يُسْلمُ منهُمْ ولو بعدَ حينٍ، فإذَا أسلمَ كانَ إسلامُه فتحاً - بإذنِ اللَّهِ - وكَمْ أعزَّ اللَّهُ الإسلامَ بأمثالِ هؤلاءِ . .

أَمْ هلْ نستطيعُ ذلكَ مِنْ خلالِ عملِ أقراصٍ مُدْمجةٍ مُتخصِّصةٍ تصلُ إليهِمْ تدخلُ الإسلامَ إلَى قلوبِ الفرنسيِّينَ والفرنسيَّاتِ؟

إنَّ التَّفكيرَ هُنا فريضةٌ علَى كلِّ مسلمٍ يستطيعُ أنْ يفكِّرَ بنورٍ يقتحمُ بهِ حصونَ الظَّلامِ، فلربَّما كانَ الفتحُ بفكرةٍ من رجلٍ غيرِ مُفكِّرٍ، ولا يعدُّ مِنْ طبقةِ المفكِّرينَ، لكنَّه عندَ اللَّهِ مِنْ طبقةِ الصِّدِّيقينَ. .

ولادة كتاب «لك القرار»:

مِنْ رَحِمِ هذِه المعاناةِ النَّفسيَّة وُلِد كتابُ «لكَ القرارُ» فلقَدْ

كانتْ هذِه أوَّلَ زيارةٍ لِي إلَى فرنسَا، وكنتُ كلَّما قابلتُ أستاذاً تمنَّيتُ أن أنتفعَ بمَا عندهُمْ مِنْ حريَّةٍ فِي التَّفكيرِ، بحيثُ يكونُ عندِي كتابٌ مناسبٌ أُهْديهِ إيَّاه ليَقْرأهُ، لكنَّني لم أكنْ أعرفُ كتاباً بالفرنسيَّةِ، وهُو بغيرِ شكٍّ موجودٌ، وكلُّ ما أعرفهُ من كتبٍ مطبوعةٍ بالعربيَّةِ إنَّما هِيَ كتبٌ تتحدَّث بصيغةِ النَّصيحةِ، أو صيغةِ حوارِ مسلمٍ معَ نَصارَى ونحوِها، وكلُّ هذِه مردودةٌ نفسيّاً لدَى أغلبِ الفرنسيين، ذلكَ أنَّ قضيَّةَ العقائدِ قضيَّةٌ لها نوعٌ من الحساسيةِ، والنَّقلةُ العقديَّةُ نقلةٌ نَوْعيَّةٌ، فهي مُكلِّفةٌ لهم مَادِّيّاً، ومحاربةٌ أُسريّاً واجتماعيّاً، وهذا النَّوع من الخطابِ يصنَّفُ كاتبُه، ويُنفَّر عنه قارِئهُ..

ثمَّ إنَّ جُلَّ تلكَ الحواراتِ جاءتْ بينَ علماءَ مسلمينَ وقساوسة، وهذا يجعل قرّاءها منحصرين فيمن لهم اهتمامات دينية، وذلك لأنَّ هؤلاءِ القساوسةَ لا يمثِّلونَ المجتمعَ النَّصرانيَّ، إنَّهم لا يُعرفونَ، لا يُزارونَ، لا يُتَّبعونَ..

ولذَا، فإنَّ الدُّعاةَ يُخْطئونَ خطأً استراتيجيّاً حِينَما يُعامِلونَ النَّصارَى علَى أنَّهم نصارَى دِينيُّونَ، بلْ إنَّهُمْ علمانيُّونَ.

لذلك ينبغي أن يفرض هذا الواقع علينا نوعية تناسب العقلية العلمانية العلمية التجريبية..، إن القساوسة ليسوا إلا شرذمة قليلة في مجتمع ما أقام حضارته إلا بعدما ثار عليهم..، فالتركيز على محاورة القساوسة تحجير لدعوتنا، وهذا

مخالف لعالميتنا ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وأمرٌ محوري آخر هو أن النصارى أقل الناس استخداماً لعقولهم في الأمور الدينية، وأكثرهم استخداماً لها في الأمور العلمية التجريبية؛ لذلك فهم يجمعون بين المتناقضات في الدين، حتى قال شيخ الإسلام: «لو اجتمع عشرة نصارى لتفرقوا على أحد عشر قولًا».

لذا فما وجدت وصفاً جامعاً أدق وأعمق وأشمل وأكمل من وصف اللَّه لهم سبحانه ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾، كما ورد ذلك في «أم الكتاب».

وحين أدرك اليهود هذا الأمر استطاعوا أن يمسكوا بقياد النصارى جيداً.

إن كون النصارى «ضالِّين» يفرض علينا نوعاً من الخطاب خاصاً.

ويخطئُ كلَّ الخطأِ مَنْ يستثيرُ الضَّالَّ، ويخاطبهُ بأسلوبِ التَّحدِّي، إنَّك إنَّما تجعله ندّاً وعدوّاً!

كلمةُ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ تُحدِّد طريقةَ دعوةِ النَّصارَى كذلكَ، فإنَّني لم أجدْ أسلوباً أحسنَ من أسلوبِ العقل بوسيلة الكتابِ، بالطَّريقةِ المحبَّبةِ إلَى الشَّارعِ النَّصرانيِّ، وليسَ فِي الكنيسةِ، لذا كانَ التَّركيزُ الصَّحيحُ وبالدَّرجةِ الأولَى علَى خطابِ هذَا الشَّارعِ النَّصرانيِّ الَّذي يعشقُ الأسلوبَ الرِّوائيَّ الحواريَّ،

وهذا ما حدَّد لي طريقةَ «لكَ القرارُ»، ولذَا حرصتُ علَى أنْ يكونَ أسلوبُ الكتابةِ ليسَ بأسلوبِ التَّفكيرِ العربيِّ أو الكتابةِ العربيَّةِ، إنَّما بالقلمِ الغربيِّ.

ولقد بقيتُ طوالَ فترةٍ وأنا أفكِّر وأقولُ: لابدَّ أنْ يكونَ ذلكَ الكتابُ حاسماً لمَنْ قرأهُ، لا يملكُ قارئه مفارقته إلَّا بقرارٍ، فرأيتُ أنْ أجعلَ حَكَم الكتابِ فِي ذاتِه، فاخترتُ قاسماً مشتركاً للكتابِ، وحاكماً ذاتياً، فكانَ ذلكَ القاسمُ المشتركُ هُوَ «الآدابُ»؛ فإنَّ المبادئَ قواسمُ مشتركةٌ بين الأُمم، فالصِّدقُ فضيلةٌ عندَ كلِّ الأمم، والكذبُ رذيلةٌ، والوفَاءُ فضيلةٌ، والخيانةُ رذيلةٌ، هكَذَا يقول العلماء.. حتَّى إذا كنتُ فِي ليلةٍ من اللَّيالي فِي سهرةِ حوارٍ في بيت الأستاذ «بريفا» وفي أثناءَ الحوارِ قال لي الأستاذ: لِمَ حَرَّم الإسلامُ هذَا الشَّيءَ؟ لا أذكرهُ الآنَ، فقلتُ لهُ: إنَّه مخالفٌ للحياءِ.

فهزَّ رأسَهُ مُمتَعِضاً قائلًا: «الحياءُ شيءٌ سلبيٌّ».

ترجمهَا لي الدُّكتور: لطفي، فقلتُ فِي نفسي مُستعظماً مُمتعضاً أشدَّ مِنَ امتعاضِهِ: «اللَّهُ أكبرُ! حتَّى الآدابُ لا نتَّفقُ معكُمْ عَليْهَا؟».

لكنَّها كانتْ كلمةً غيَّرتْ منهجَ الكتابِ كلِّه، وأنَا لمْ أبدأْ بهِ بعدُ، فبقيتُ أبحثُ عن قاسمٍ مشتركٍ آخرَ..

وبعدَ فترةٍ وجدتُ الطَّريقةَ الَّتي هِيَ أصلحُ ما تكونُ

لـ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾، وجدتُ القاسمَ المشتركَ الَّذي نحتكمُ لهُ جميعاً، ويرضاهُ النَّصارَى والهندُوس والبوذيُّونَ، وكلُّ أحدٍ، ولا يخالفُ فِي الموافقةِ علَى حُكْمهِ أحدٌ، إنَّه العقلُ.

لِذَا قرَّرتُ أنْ يكونَ عمادُ «لكَ القرارُ» هوَ العقلُ...، الخطابُ عقلي...، الأَدِلَّةُ العقليَّةُ...، القضايَا الدِّينيَّة بالعقلِ...، القضايَا الغيبيَّةُ بالعقلِ... العقلُ يحكمُ علَى كلِّ ما يعرضُ فِي تلكَ المجالسِ الحقيقيَّةِ.

إنَّهم بغير هذَا لَنْ يُوافِقونا، فمَنْ نحنُ - عندهُمْ - حتَّى نُخاطِبهَمْ بوجوبِ الالْتزامِ بالكتابِ والسُّنَّةِ من خلالِ نصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ، فإنا إذا ما حَيَّدنا النُّصوصَ الدِّينيَّةَ للطَّرفينِ فقَدْ كسبنَا العقلَ إلَى صفِّنا وبكلِّ إنصافٍ دونَ نُقْصانِ ذَرَّةٍ عن المائةِ بالمائةِ، وكلُّ ما تأتي به من نصوصٍ دِينيَّةٍ تُعرَضُ علَى العقلِ، فاستَوى بذلكِ النَّصرانيُّ والبُوذيُّ واليهوديُّ والمسلمُ، وكلُّ المِلَلِ، فالمِللُ تختلفُ بنصوصِها الدِّينيَّةِ وتتَّحدُ بالعقلِ، وماذَا نخسرُ إذَا أثبتنَا وحدانيَّةَ اللَّهِ وبطلانَ عقيدةِ التَّثليثِ بالعقلِ المجرَّدِ؟ بل استوى في ذلك أكبر عالم وروائي وأصغر فلاح وراعي.

ماذَا نخسرُ إذَا أثبتنَا نُبوَّةَ رسولِ اللَّهِ ﷺ بالعقلِ، وأثبتنَا كَوْنهُ خاتمَ النَّبيِّينَ بالعقلِ، ورَدَدْنَا كلَّ ما يذكرونَهُ من شبهاتٍ بالعقلِ. لكنْ تذكَّرْ جيِّداً أنْ مَنْ تخاطبهُ لَنْ يسلِّمَ لكَ بمُجرَّدِ

أنْ تدندنَ لهُ عنِ أهمية العقلِ، حتَّى تأتِي بمَا يديرُ دفّة عقله من حيثُ لا يشعرُ.

إنَّك لَوْ وضعتَ فِي عنقِ إنسانٍ حبلاً لسعَى جاهداً أن يتفلَّتَ منكَ، أمَّا حينَ تقنعهُ بعقلهِ فإنَّما تُقيِّدُ قلبَه، وتأسرُ بصيرتَه، وتكسبُ قرارَه.

فكانتْ هذِه المعاناة هِيَ التي حددت منهجية «لكَ القرارُ».

كَمْ كنتُ أُعانِي كلَّما أردتُ أنْ أُهْدي أحداً مِنْ هؤلاءِ العلماءِ الكبارِ فِي تخصُّصاتِهِمْ المختلفةِ كتاباً علمياً عقلياً وإسلامياً.. فلَا أجدُ. نَعَمْ، وجدتُ كتباً تتكلَّمُ فِي جُزئيَّةٍ واحدةٍ أو جُزئِيَّتينِ، ككتابٍ يتكلَّم فِي الإعجازِ العلميِّ فقط، أو كتابٍ يتكلَّمُ عن حقِّ المرأةِ فِي الإسلام، أَوْ عَنِ الرِّقِّ، أو عَنِ العنفِ، ومَا إلَى ذلكَ، وبعضُها يتكلَّمُ بأسلوبِ المهزوم!

فكنتُ أَخْشَى أَنْ أُهدي أَحَداً مِنْهُمْ كتاباً عَنِ المرأةِ فِي الإسلامِ مثلاً، فيكونُ موضوعُ المرأةِ عندَهُ محسوماً وليس هذا من المواضيع التي تهمه، فأخسر الجولة والجهد، أو أُهْدِي عالماً آخرَ منهم كتاباً عن العدلِ فِي الإسلام، فيكونُ مقتنعاً تماماً بالعدل فِي الإسلام، فلا يكونُ سهم النور قَدْ أصابَ صَيْده، وهكذَا الرِّقُّ وبقيَّةُ القضايَا، فأينَ مَنْ يقعُ موضوع بحثي علَى مُشْكلتِه المناسبةِ في هذه المعادلة الحسابية؟!

لذَا جاءَ «لكَ القرارُ» يتعرَّضُ لأكثرِ ولأهمِّ وأشهرِ القضايَا

الَّتي عندَ النَّصارَى، بحيثُ يجد كلُّ واحدٍ من النَّصارَى موضوعَهُ ومشكلته مع الإسلام وبالأسلوب العقلي.

وبعد التمام الموضوعي بحمد اللَّه درسنا حجم الكتاب دراسة واقعية، فجعلناه بحيث يستطيعُ الرَّجلُ أن يضعَ أيَّ جزءٍ منه فِي جيبهِ، والمرأةُ فِي حقيبتِها، فليسَ مقصودُ هذَا الكتابِ الرَّفَّ، إنَّما «القرارُ».

آملاً بالأساسِ أنْ يكونَ زاداً لكلِّ داعيةٍ مسلم، بل مُعلماً دعوةَ النَّصارى إلَى الإسلام بالأدلَّةِ الَّتي لَا تُردُّ - بإذنِ اللَّهِ -، وخصوصاً لمَنْ قرأهُ من المسلمين فِي المرَّةِ الثَّانيةِ قراءةَ الدِّراسةِ المدقِّقةِ، دراسةَ مَنْ يريدُ تحويلَ نفسِه إلَى داعيةٍ مقنعٍ - بإذنِ اللَّهِ، وكفايةً لكلِّ مَنْ أحبَّ أن يَدْعُوَ فعجزَ لقلَّةِ علمٍ، أو قلَّةِ وقتٍ، أو قُوَّةِ خصمٍ، أو عجلةٍ من الأمرِ، أو نحوِ ذلكَ، فيكفيهِ «لك القرار» أنْ يقدِّمه هدية لمن يشاء..، فاللَّهُمَّ تقبَّلهُ، واجعلهُ نوراً يُمشى به فِي النَّاسِ.

سهم النُّور الخامس: محطَّة فضائيَّة

فكرةٌ طرحهَا رفيق السفر أبو حمد، تلكَ هِيَ إنشاءُ قناةٍ فضائيَّةٍ مُتخصِّصةٍ بدعوةِ البلادِ الأوروبيَّةِ إلَى الإسلام، تتحدَّثُ بلُغاتِهم الكبرَى، وأهمُّها الإنكليزيَّةُ والفرنسيَّةُ. وإلَّا فلتكنْ مُتخصِّصةً باللُّغةِ الفرنسيَّةِ، وما أكثرَ النَّاطقينَ بِهَا!

لقَدْ آنَ لنَا أنْ ننشئَ قناةً تتغلل إلَى داخلِ بُيُوتهِمْ وقُلوبِهِمْ - وإنْ كانتْ هِيَ خارجَ فرنسَا - قناةً تدخلُ إلَى أسواقِهِمْ، إلَى منتدياتِهِمْ،

فيها الجمالُ الحلالُ، وفيهَا العلمُ التَّطبيقيُّ، وفيهَا الاكتشافاتُ الطِّبيَّةُ الفرنسيَّةُ علَى الأخصِّ، وفيهَا تعليمُ الفرنسيِّينَ والمتفرنسينَ اللُّغةَ العربيَّةَ، وفيهَا صياغةُ كلِّ ذلكَ بالإيمانِ..

ليسَ الأمرُ بتلكَ الصُّعوبةِ الَّتي يتوهَّمها مَنْ يتوهَّمها، إنَّه منهجٌ كاملٌ يُوضعُ لهذِهِ المحطَّةِ برامج مدروسةٌ تُوافقُ الأهدافَ والمنهجَ، وجاذبيَّةٌ فذَّةٌ فِي عرضِ مَادَّةٍ قَويَّةٍ..

وسرُّ نجاحِ هذَا المنهجِ هُوَ الرَّجلُ الَّذي يتولَّى هذَا المشروعَ، ومَا أكثرَ الرِّجالَ الصَّالحينَ لهذَا، والحمدُ للَّهِ ربِّ العالمينَ، ولعله عند كتابة هذا الكتاب لم تكن ثمة محطة فضائية، وربما تكون الآن - وعند صدوره - قد افتتحت للفرنسيين أو لغيرهم من الأوربيين محطة أو أكثر، وهذا أمر عظيم يكون قد تحقق، وطريق عظيم قد انفتح فلايبقى إلا تطوير الأسلوب المناسب لهم، وجعل الظهور لوجوه بني قومهم من مسلمي قومهم، وتقديم الإسلام بالخطاب العقلي والعلمي من خلال الرواية والحوار والصورة والحدث، واستخدام أعلى التقنيات، وهذا كتابي «لك القرار» المتخصص في هذا الجانب سبيل مباح لكل المخرجين والممثلين والمنتجين والمذيعين، وما عليهم إلا التنسيق مع مؤسسة الجديد النافع ولا أسألكم عليه مالًا.

سهم النُّور السَّادس: موقعٌ دعويٌّ مُتخصِّصٌ:

لا بدَّ مِنْ إنشاءِ موقعٍ دعويٍّ مُتخصِّصٍ فِي دعوةِ الفرنسيِّينَ

والنَّاطقينَ بالفرنسيَّةِ إلَى الإسلام، علَى شبكةِ الاتِّصالاتِ العالميَّةِ «الإنترنت» يأخذُ الدَّعايَةَ الكافيةَ الَّتي تبلغُ كلَّ المهتمِّينَ فِي مجالِ الاتِّصالاتِ . .

فثمَّة شريحةٌ لا يُستهان بها تتابعُ مثل هذَا الموقع، وثمَّةَ رجالٌ ونساءٌ سيدخلُ لهم الإسلامُ من هذَا الطَّريقِ، ولَا يدخلُ إليهِمْ مِنْ غيرِهِ، وثمَّةَ رجالٌ مِنَ المسلمينَ يستطيعونَ التَّفرُّغَ لهذَا الأسلوبِ الدَّعويِّ طوالَ اللَّيلِ والنَّهارِ، فليكنْ بابَ حوارٍ حضاريٍّ دينيٍّ عقديٍّ علميٍّ، ولنْ يُغْلبَ الإسلامُ أبداً، إنَّما هو مجرَّدُ مجيئِه وتقدُّمه ولو خطوةً واحدةً فإذَا الإسلامُ قَدِ انتصرَ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

فلتُوضَع لهذَا الموقع ميزانيَّةٌ، وليُنْتخبْ لهُ مادَّتهُ، وليُوضَعْ لهُ قبلَ ذلكَ منهجُه، ولْيتَسَلَّمْ رايتَه رَجُلُهُ ومِنْ حَوْله عُصْبتهُ، فهو بوابة فتْح لَا تكاليفَ فيهِ. .

ماذَا تُكلِّف فكرةٌ مثلُ هذِه لو حَملَها كلُّ مسافرٍ إلَى بلدٍ من بُلْدانِهم، فغدتْ فِي كلِّ بلدٍ واقعاً قائماً. .، فتتعدَّى حدودُ الفكرةِ فرنسَا وأورُوبا إلَى بلادِ الدُّنيا؛ لأنَّ المسافرينَ المسلمينَ والمهاجرينَ يغطُّون الأرضَ بأكملِهَا. .

فَلْننشِئ مواقعَ لهُمْ. . فيهَا ما ذُكِرَ، وفيهَا خُطَبُ الجمعةِ المناسبةُ لمساجد تلكَ البلادِ ولوقايةِ أَجْيالِهِمْ. .

أي فتح عظيم إذَا تحوَّلتْ أجيالُ المسلمينَ القادمةُ المقيمة هناك إلَى مفاتيح هدَى ومشاعل نورٍ وكنوزِ سعادةٍ لتلكَ البلادِ الَّتي احْتَضنتْ آباءهُمْ، واحْتضنتهُمْ فِي أرحامِ أُمَّهاتِهمْ يوماً من الأيَّام، ويُنْشأُ أكثرُ من موقعٍ فِي البلدِ الواحدِ منهَا للمغتربينَ، ومنهَا لسُكَّانِ البلدِ الأَصْليِّينَ.

سهم النُّور السَّابع: التَّقوى في المأكول والمشروب: يَا قائدَ الرَّكبِ: بمجرَّدِ الإخبارِ بالسَّفرِ قبل رحلة الصَّيف تبتدئُ صناعةُ الأحلامِ بالأفلام والإنتاجِ والإخراجِ فِي عقليَّةِ الأولادِ؛ ذكوراً وإناثاً، ولربَّما كانَ مثلُها فِي عقليَّةِ النِّساءِ، ولكنْ بإخراجٍ مختلفٍ.

هنَا لابدَّ لقائدِ المسيرةِ الأسريَّةِ أَنْ يضبطَ الأحلامَ، ولَا يُعكِّرها فضلاً عَنْ أنْ يعصفَ بِهَا.

فالسَّفرُ ليسَ انفلاتاً مِنْ قلمِ المَلَكينِ وصُحْبتهما، فليسَ للمَلَكينِ إقامةٌ فِي بلدِك، ولَا تَعُوزهما الفيزَا ولا التَّذاكرُ، ولَا مَا إلَى ذَلِكَ.

والسَّفرُ ليسَ خروجاً عَنِ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ فِي فترةِ هذِه الرِّحلةِ، ولَا انفلاتاً مِنْ طاعةِ الوالدينِ، بَلْ هو تَمتُّعٌ مشروعٌ بطريقةٍ جماعيَّةٍ، أو هُو اشتراكٌ جديدٌ لنا فِي رحلةٍ أُسريَّةٍ كما كنَّا فِي إقامةِ الحضرِ.

فليسَ السَّفرُ بالأمرِ الفرطِ، ولا المجازفةِ الخالصةِ.

فمَنْ يسافر يتقرب إلى اللَّهِ بتقواهُ كَما هو يتقرب إلى اللَّه في الحضرِ بتقواهُ.

فنحنُ مَا خرجنَا مِنْ بلادِنا لنبنِي فِي أبدانِنا خلايَا جديدةً مِنْ أَكْلِ الميتةِ! ذلكَ أنَّ كلَّ اللُّحوم المعروضةِ فِي تلكَ البلادِ ميتةٌ؛ لأنَّ كلَّ مصانعِ اللُّحومِ تعتمدُ طريقةَ الصَّعقِ الكهربائيِّ، فلا تقولنَّ: إنَّهم نصارَى، وَقَدْ أباحَ اللَّهُ أَكْلَ ذبائِحهم! فإنَّ الجوابَ: هَبْ أنَّ الَّذي صَعَقها مسلمٌ، أيجوزُ أَكْلُ ميتةِ المسلمِ وموقوذةِ المسلمِ، ومُتردِّيةِ المسلمِ، ومَا إلَى ذلكَ؟ ألمْ يُحرِّمِ اللَّهُ الميتةَ بوصفها لا بوصفِ الذابحِ فِي كتابِه نصّاً صريحاً قبلَ الخنزيرِ كمَا قالَ سُبحانَهُ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

نَعَمْ، كلُّ المعروضِ مِنَ اللُّحومِ ميتةٌ، اللَّهمَّ إلَّا ما ذبحهُ المسلمونَ، وما ذبحهُ اليهودُ لأنفسِهم.

يا قائدَ الرَّكبِ، ما أكثرَ ما يعتجنُ لحمُ الخنزيرِ وشحمُه وإنزيماتُه فِي لحومِهم المطبوخةِ، ومعلبَّاتِهم، وحلويَّاتِهم،

فاصنعْ صمامَ الأمانِ فِي أُسْرتِك وصَحْبِك المسافرينَ معكَ، دونَ أَكْلِ الميتةِ ولحمِ الخنزيرِ، ذاكَ هُو صِمامُ التَّقوَى فِي النُّفوسِ.. فعَنْ أَبِى هريرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّباً، وَإِنَّ اللَّهَ أمرَ المؤمنينَ بما أمرَ بهِ المرسلينَ فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾. ثمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حرامٌ، وملبسهُ حرامٌ، وَغُذِيَ بالحرَامِ، فأَنَّى يُستجَابُ لذلكَ»[1]!.

يَا قَائدَ الرَّكْبِ: القبلة.. القبلة! أيليقُ بمَنْ أبحرَ مركبُه بعيداً عن بلدِه أن يضيعَ مركزَ حياتِه ورحلاتِه، أتراهُ سوفَ يصلُ إلَى شيءٍ، ذاكَ مَنْ يسافرُ ولا يعرفُ قِبْلته فِي بلدِ سفرِه، ولا يسألُ عن مواقيتِ صلاتِه، ولَا عَنْ طريقةِ طَهارتِه فِي بلادٍ لا تحسبُ للطَّهارةِ حِسَاباً.

سهم النُّور الثَّامن: مِنَ المسائلِ الَّتي دارَ فيها الحوارُ بينَنا مسألةُ التَّداوِي بالأدويةِ النَّبويَّةِ والأدويةِ الشَّعبيَّةِ..

وإنَّ البعضَ - جهلًا منه ممتزجاً بالحماسةِ - يتعصَّبُ لهذِه المسألةِ حتَّى لكأنَّ مَنْ قالَ: (العسلُ لَا يصلحُ لهَذا المرضِ) أنَّه

---

(١) رواه مسلم (١٠١٥).

ردَّ آيةً فِي كتابِ اللَّهِ!

فكانَ ثمرةُ هذَا النِّقاشِ هُو أنْ ذكرتُ لأصحابِي الآتِي:

أَوَّلًا: أنَّ كلامَ اللَّهِ - تعالَى - وكلامَ رسولِه ﷺ حقٌّ لَا ريبَ فيهِ، فمَا قالَ اللَّهُ تعَالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ﴾ إلَّا وفيهِ شفاءٌ بغيرِ شكٍّ، لكنْ مَا قالَ: (فيهِ شفاءٌ لكلِّ مرضٍ) فَهُوَ كَذلِكَ، ومَا قالَ أنَّ فيهِ شفاءً مِنْ مرضٍ بعينِهِ، ففيهِ شفاءٌ مِنْ ذاكَ المرضِ، وهكَذا.

لَكِنْ فِي أكثرِ تلكَ الأدويةِ المذكورةِ لم يحدِّدِ الشَّرعُ المقدارَ الَّذي يُؤْخذُ، ولا التَّوقيت الَّذي يؤخذُ بهِ الدَّواءُ، ولا عددَ المرَّاتِ، ولَا الخلطةَ، ومقاديرَها، ونحوَ ذلكَ.

فيبقَى هذَا الأمرُ راجعاً لنَا نحنُ المُسلمونَ، فمَنْ أتَى بالدَّواءِ علَى الوجهِ الَّذي يريدهُ اللَّهُ - تعالَى - أصابَ الشِّفاء قطعاً كمَا وردَ.

ومثلُ هذَا كمثلِ قولِ النَّبيِّ ﷺ: «مَا أنزلَ اللَّهُ داءً إلَّا أنزلَ لهُ شفاءً»[1].

وقالَ: «تَدَاوَوْا عِبَادَ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُنَزِّلْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ مَعَهُ شِفَاءً إِلَّا الْمَوْتَ وَالْهَرَمَ»[2].

وإلَّا فَهَلْ مِنَ المعقولِ أنْ يقولَ النَّبيُّ ﷺ: «الحبَّةُ السَّوداءُ

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه» برقم (٥٣٥٤).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» برقم (١٨٤٥٥).

شفاءٌ مِنْ كلِّ داءٍ»[1] ثمَّ تصلحُ الحبَّةُ السَّوداءُ لكلِّ مرضٍ بنفسِ المعدَّلِ، ونفسِ أعدادِ مَرَّاتِ التَّناولِ، ونفسِ التَّوقيتِ على رُغْمِ الاختلافِ الكبيرِ والتَّباينِ العظيمِ مَا بينَ مريضٍ ومريضٍ، ومَا بينَ مرضٍ ومرضٍ.

وحينَ يذكرُ اللَّهُ - تعالَى - فِي كتابِه العزيزِ عَنِ العسلِ فيقولُ: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ فلَا يعنِي هذَا أنَّه ليسَ فيهِ مضارٌّ لبعضِ النَّاسِ كأصحابِ السُّكَّري، أَوْ أصحابِ المرارةِ كمَا قرَّر الأطبَّاءُ ذلكَ، وهذَا كمَا فِي قولِه - سبحانهُ - فِي الخمرِ: ﴿وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، فلَا يعنِي هذَا أنَّه ليسَ فيهَا مضارٌّ.

فقولهُ: ﴿فِيهِ﴾، لَا يعنِي الحصرَ والقصرَ، كما أنَّها لم تحدِّدِ المقاديرَ والأعدادَ والأوقاتِ لكلِّ مرضٍ، ولكلِّ مريضٍ.

وهذَا الأمرُ يسري حتَّى علَى الأحكامِ التعبدية الأصلية.

فإنَّ تفصيلَ أكثرِ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ يعودُ إلَى أهلِ العلمِ الَّذي أمرَ اللَّهُ - تعالَى - بالرُّجوعِ إليهِمْ، قالَ - سُبحانَهُ -: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

فكيفَ نكتفِي بعمومِ النَّصِّ لنبنِي عليهِ أحكاماً طبِّيَّةً لا تقبلُ النَّقضَ؟!

---

(١) متفق عليه، البخاري برقم (٥٦٨٧)، ومسلم برقم (٥٨٩٦).

إنَّ المسألةَ واضحةُ السَّببِ فِي ذهنِي، تلكَ هِيَ: أنَّ لَدينا مراجعَ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ - والحمدُ للَّهِ - أمَّا الأحكامُ الطِّبيَّةُ فليسَ لَدينا فيهَا مراجعُ، ومَا سببُ هذَا إلَّا التَّخلُّف العلميُّ الحضاريُّ للأمة، وهذَا واجبُ قادة الأُمَّةِ بالدَّرجةِ الأساسِ، إذْ إنَّ عبءَ الاكتشافاتِ الطِّبيَّةِ وتحويلَها إلَى علاجاتٍ حقيقيَّةٍ لا يتحمَّلهُ فردٌ مِنَ الأفرادِ، إنَّما تتحمَّلهُ المؤسَّساتُ الرَّسميَّةُ، ومَنْ نظرَ إلَى مَا تنفقهُ حكوماتُ الدُّولِ المتحضِّرةِ عَلِمَ أنَّ الأمرَ أكبرُ مِنْ طاقةِ فردٍ مِنَ الأفرادِ، وأنَّ تحمُّلَ هذَا التَّخلُّفِ يقعُ بالأساسِ علَى الجهاتِ الرسمية، وأنَّ أولئكَ الغربيِّينَ قَدْ صنعُوا مِنْ تجاربِ أجدادِهم البائدةِ علوماً، وطَوَّروها وقرَّروها، وأنشؤوا لهَا مدارِسَها وشهادَاتِها العُلْيا كَما هُو فِي الإبرِ الصِّينيَّةِ، بينَما أُمَّةُ الوَحْي الَّتي عندهَا الدواء مقطوعاً بهِ لَمْ تفعلْ شيئاً مِنْ ذلكَ، فأدويتُها معيَّنةٌ، ومحدَّدةٌ، ومقطوعٌ بها فِي نصوصِ الوحيِ الَّتي لا تقبلُ النَّقضَ ولا النَّسخَ كَما وردَ فِي العسلِ والحبَّةِ السَّوداءِ والحجامةِ، والكَيِّ، وإليةِ الخروفِ، وأبوالِ الإبلِ وألبانِها، والقُسْطِ البحريِّ، والتَّلبينةِ، والتَّحنيكِ، ونحوِ ذلكَ، ومَا علَى الأُمَّةِ إلَّا أَنْ تحدِّدَ المقاديرَ المطلوب تَناوُلها مِنْ هذَا الدَّواءِ الرَّبَّانيِّ القطعيِّ، وأعدادَ المرَّاتِ، وربَّما الأوقات لكلِّ مرضٍ حتَّى يقعَ الشِّفاءُ، فالدَّواءُ هُنا مقطوعٌ بهِ، ولكنْ أينَ

الأُمَّةُ الَّتي تتكفَّلُ بتفاصيلِ ذلكَ، كمَا تَكفَّلَ أهلُ الفقهِ بتفصيلِ النُّصوصِ العامَّةِ إلَى مسائلَ عَمليَّةٍ؟!

إنَّ مَثَلَ ذلكَ كَمَثَلِ ذاكَ المريضِ الَّذي يريدُ الشِّفاءَ بمجرَّدِ الذَّهابِ إلَى الطَّبيبِ ومُقابلتِه دونَ الأخذِ بِوصِيَّتِهِ وأدويته، لقَدْ كانَ النَّبيُّ ﷺ يستطيعُ أنْ يقولَ للرَّجلِ: «صدقَ اللَّهُ وكذبَ بطنُ أخِيك»[1] مِنْ بعدِ المرَّةِ الأولَى وإنَّه لحقٌّ، ولكنْ: لِمَ قالَها بعدَ الثَّالثةِ؟ ولِمَ لَمْ يتوقَّفْ بطنُه إلَّا بعدَ الثَّالثةِ؟!

ولقَدْ كانَ المريضُ يأتِي للنَّبيِّ ﷺ فيصفُ لهُ أحياناً الكيَّ، وأحياناً العسلَ، وأحياناً الحبَّةَ السَّوداءَ، وأحياناً الرُّقيةَ الشَّرعيَّةَ، وأحياناً القُسْطَ البحريَّ، وأحياناً التَّلبينةَ..

فلَمْ يصفِ العسلَ فِي جميعِ المرَّاتِ أو الحبَّةِ السَّوداءِ أو نحوِها..

هَلْ غابَ عنهُ ﷺ أنَّ العسلَ: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾؟!

وأخيراً فليس لسهام النُّور حدٌّ ولا عدٌّ، وليسَ لها آخرٌ... فإنَّها ميدانُ سباقٍ، وسبقُ ابتكارٍ يفضُّ أبكارَ الأفكارِ، فإذَا كلُّ شيءٍ يتحوَّل إلَى سهمِ نورٍ، وإذَا الحياةُ ميدانُ غراسٍ، والسفرُ هدايةٌ لأولئكَ النَّاس.

هذَا رجلٌ أميٌّ من الأُمَّةِ الأميَّةِ يحملُ مَعهُ كُتباً مترجمةً بلغةِ

---

(١) متفق عليه، البخاري برقم (٥٣٦٠)، ومسلم برقم (٥٩٠١).

بلدِ سفرِهِ فيُهدِيها للمكتبةِ العامَّةِ - وهُمْ يُرحِّبونَ بِهذَا - كَيْ تصبحَ غراساً يسقِي قلوبَ القومِ الهدايةَ والنُّورَ. . . ولسانُ حالِهِ يقولُ: يا ربِّ: بَارِكْ هذَا الجهدَ القاصرَ. . فِي هذَا البلدِ الكافرِ. . كَيْ يكونَ حصادُه لِي قرَّةَ عينٍ فِي اليومِ الآخرِ.

فإذَا كانَ هذَا شأنَ الأُميِّ. . فماذَا يجبُ علَى أهلِ الفهمِ، أو العلمِ، والدعوةِ. . . ماذَا يجبُ على مَنْ يخافُ أنْ يسألَهُ اللهُ عَنْ نفقاتِهِ فِي سفرِه، عَلى أُنْسِهِ مقارناً بنفقاتِهِ علَى آخرتِهِ؟! علَى بذلِهِ مِنْ وقتِهِ علَى لَهْوِهِ المباحِ مقارناً ببذلِهِ مِنْ وقتِهِ لدعوتِهِ ودينِهِ المستباحِ؟

إنَّه ميزانٌ سوفَ يُنْصبُ. . . وكمَا تصنع فيه في كِفَّةِ المباحِ معَ الضَّمان ولَا أقولُ . . . .

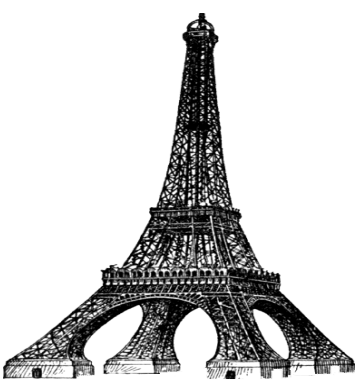

الخاتمةُ، سهام النور من كنانتك

سهامُ النُّورِ لا تخبُو ولَا تأفلُ، وإنِ اشتدَّتِ الظُّلمةُ وتكاثفتِ طبقاتُها، فليحملْ كلُّ مسافرٍ فِي كنانتِه مِنْ سهامِ النُّورِ ما يحملُ مِمَّا يستطيعُ، فكنانةُ كلِّ واحدٍ قلبُه، وقَوْسُها الرَّامي لسانُه وقلمُه وخُلُقه.

سهامٌ لا تنبعثُ من شمسٍ ولا قمرٍ، إنَّما الشَّمسُ والقمرُ هُو هذَا القلبُ الَّذِي فِي الصَّدرِ..

فكما سهمُ النُّورِ يخرقُ أطواقَ الظَّلامِ الَّتي طوَّقتهُ...، فكذلكَ نورُ القلبِ يشق ظلمةَ الصَّدرِ فيُضيئهُ والفكرَ فينيرُه...، واللِّسانَ فيطلقُه...، والقلمَ فيبعثُه...، فكلُّ مسافرٍ وراحلٍ ومهاجرٍ يَبْعثُ من النُّورِ علَى قَدْرِ مَا توهَّجَ فِي قلبِهِ، فليتزود المسافرون من سلاح النور كلٌ يحمل حسب ما في قلبه...، لكن من هؤلاء المسافرين من لا يُشْبعُ طُموحَه إلَّا السَّعيُ فِي هِدايتِهم جميعاً.. إنَّه يسعَى

ويخطِّطُ، ويدعُو اللَّهَ، ويستغيث ولَا يتوَانى..، وهذِه هِيَ الإمامةُ للمتَّقينَ.. ولكن إيَّاكَ أيها القارئ أنْ تشمتَ بمسلم راحلٍ إِلَيْهِمْ أو تحتقر جهده.. ففِي قلبِ كلِّ مسلم فطرةُ الخيرِ وبذرةُ النُّورِ.. فلَا خيرَ فِي النَّاسِ جميعاً إنْ لَمْ يكنْ فِي المسلمينَ خيرٌ.. وكَمْ مِنْ مسلم ما اتقدَّتْ غيرتُه، ولا شعَّ نورُه حتَّى رحلَ إِلَى بلادِهم.. ولا أدري: أهي ردة الفعل أصابته، أم غيرة المؤمن على دينه أخذته، أم شكر نعمة الله التي اختصه وقومه بها أيقظته، أم صحبة السفر الصالحة للحق أعادته، أم الإشفاق عليهم وإدراكهم قبل الممات هي التي ثوَّرته.. ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فاللهم اجعل كل واحدٍ منا مباركاً حيث ما كان.

الفهرس

المقدمة [انطلاقة السباق] ٣
من مطار دبي إلى مطار شارل ديغول ٧
شهوة بلا إحساس ١٥
بيوت بلا أسوار ١٨
بدلوا نعمة اللَّه كفراً ٢٣
الخبراء فِي سيارة التُّفايات! ٢٥
طيبات فِي فرنسا ٢٦
وقل اعملوا ٣٠
أفشوا السَّلام ٣٤
إيمانيَّات فرنساويَّة ٣٦
طول الصِّراط ٤٠
مزاج المسافرين ٤٤
سهام النور فِي ليل الغرب ٤٩
الخاتمةُ، سهام النور من كنانتك ٧٩